ســــــارة

عباس محمود العقاد

أهو أنت

مضت خمسة أشهر قبل أن يجرؤ على عبور ذلك الشارع مشيا على قدميه . ليس الشارع مقفرا أو مخيفا ، لأنه محاط بالعمار مزدحم في جوانبه بالسابلة والسكان

وليس هو بالبعيد عن طريقه لأنه يوشك ان يحتاج إليه في ذهابه وإيابه إلى حيث يقيم في ضاحية المدينة.

ولكنه كان شارعا يلتقيان فيه عند ذهابهما إلى دار الصور المتحركة (السينما) ثم يلتقيان عند خروجهما منها .

وكانا يجلسان إذا دخلا تلك الدار في مكانين متجاورين ولكنهما لا يدخلان إليها ولا يخرجان منها متجاورين ، بل يرسل هو إلى نافذة التذاكر من يبتاع التذكرتين لكرسيين في مكان قلما يتغير ثم يلقاها في ذلك الشارع فتأخذ إحدى التذكرتين وتسبقه إلى الدار ويظل هو بضع دقائق في بعض الاندية العامة ثم يلحق بها إلى المكان النعروف.

وكان من عادتها أن تقارن بينها وبين بطلة الرواية إذا أحست منه إعجابا بها أو ثناء عليها وتسأله في ذلك اسئلة ذكية خبيثة لا تسهل المغالطة في جوابها إلا على سبيل المزاح والمداعبة .

سألته مرة وقد لمحت منه اهتماما بالروايات التي تظهر فيها إحدى الممثلات:

-إذا سمحت لك هذه الممثلة بقبلة . أتقبلها منها ؟

فعلم ان الجواب الجد عن هذا السؤال غير سليم العواقب وعمد إلى العبث والمراوغة.

وقال:
-وهل من الأدب أن أرفض قبلة تعرضها سيدة ؟
قالت :
-دعنا من حديث الأدب فما عن هذا أسأل .. أنا أسألك عن دخيلة نفسك .. أسألك عن رغبتك فهل ترحب بتلك القبلة إذا وجدتها ؟

فعاد مرة ثانية إلى العبث والمراوغة وطفق يقول :

أما إن كنت أمثل معها على الستار الأبيض فأنت تعلمين أن القبلة لا غنى عنها ، تلك واجبات الفن يا صديقتي ولا تتم الفنون إلا ببعض التضحية.

قالت :
أو تضحية هي ؟
قال :

نعم . كل قبلة غير قبلة المرأة التي يحبها الرجل هي تضحية بل هي إن شئت سخرة .

فرضيت وهي تعلم أنه يغالط ويراوغ في الجواب وأحبت أن تشعر انه لا يقبل تلك الممثلة الجميلة إذا اتيح له تقبيلها وهي تعلم أنه لا يقول صدقا ولا يعمد إلى الصراحة . وقالت وهي تضحك :

لقد نجوت ! إن قبلة تتمناها لهي خيانة الضمير ، لا فرق بين خيانة الضمير وخيانة الواقع إلا التنفيذ.

وإذا خرجنا للرياضة بعد الفراغ من الصور المتحركة فكثيرا ما كانت تمد يدها إلى مفكرته في جيبه فتكتب فيها كلمة تناسب رواية الليلة أو تناسب الرياضة التي خرجا لها إن كانت لها مناسبة ملحوظة.

فكتبت مرة وقد شاهدا رواية المرأة المترجلة " هل أعجبتك رواية المرأة المترجلة ؟ أما أنا فسأكون لك امرأة فقط" ..

وكتبت مرة أخرى وقد شهدا رواية المرأة المحتالة " أرجو ألا ترى المرأة المحتالة إلا في السينما أما في الحياة فحسبك المخلصة : فلانة"

وربما مضت سنة أو سنتين على مشاهدة الرواية هي تذكر كل كلمة قالها في التعليق عليها أو في انتقادها . فاتفق يوما انهما حضرا الصور المتحركة في احدى الضواحي الصيفية حيث تعرض المشاهد القديمة بعد سنة او سنتين من عرضها في المسارح الكبيرة وشهدا هنالك رواية هزلية عن صياد فاشل يستعيض من فشله في الصيد بالمبالغة في الوصف والحكاية فكان يرفع البندقية ويطلق الطلقة الواحدة في اتجاه واحد فيقع الطير عن يمينه وشماله من جميع الجوانب ويظل يتساقط من هنا وهناك إلى ما بعد إطلاق البندقية بلحظة غير قصيرة.

فقال لها:
-أليس الأحسن و الأبرع أن يسقط هذا الطير مشويا على الأطباق ؟

فضحكت طويلا وقالت :

-أتذكر ؟ إنك قلت هذه الكلمة بعينها عندما شهدنا هذه الرواية في البلد للمرة الأولى!

ولا يندر أن يسمع منها أثناء التمثيل كلمات سريعة وتعليقات متبدرة تكشف بها على غير قصد عن أعمق أعماق المرأة وتهزأ فيها بالرياء الأنثوي الذي يبدو في خجل المرأة وامتناعها.

من ذلك أنهما شهدا رواية من روايات الثورات يبدو فيها طريد جريح مهدد الحياة بجراحه ومهدد الحياة بمطاردة أعدائه وقد لاذ باحد البيوت فأكرمه أهل البيت وكتموا أمره وتعهدته بالعلاج فتاة دون العشرين من العمر سليمة القلب وسيمة الطلعة ممشوقة القوام فمالت إليه شفقة ثم مالت إليه حبا ثم تمالك نفسه بعد طول العلاج حتى انفردا في بعض الجلسات فبلغ سرورها به وسروره بها أن نظر إليها ونظرت إليه وعيونهما تومض بالمحبة ثم اعتنقا في قبلة طويلة جارفة.

وكان بين المتفرجين على المقربة منهما سيدة نصَف في نحو الأربعين من عمرها وفتيات ناهدات في مثل سن الفتاة فصاحت السيدة :

-انظرن إلى الخائن ! إنه خدعهـــــا!

فمالت صاحبتنا وهمست ساخرة :

-أتقول خدعها ؟! إنه كافأها أحسن مكافأة يستطيعها!

****

وهكذا كانت دار الصور المتحركة عندهما شيئا أكثر من ملهى الفراغ وموعد اللقاء : كانت محور حياتهما الغرامية وهل كانت لهما من حياة في ذلك الحين إلا الحياة الغرامية ؟ وكانت ملتقى الذكريات والعواطف ووسيلة التقارب والتفاهم فيما يشعران به وما يلاحظانه من أحوال المحبين والمحبات وكانت ذخيرة من المناظر التي يقترن كل منظر منها بكلمة أو بخاطر أو بمناقشة أو بامنية يملكان تحقيقها أو بأمنية يكتفيان منها بالحلم والخيال.

فلما وقعت الجفوة بينهما وانقطع طريقهما إلى تلك الدار كانت كل خطوة في تلك الطريق كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفي فيها رصيا من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الأمور واهو المحذورات .

ثم مضت أشهر وخيل إلى صاحبنا أنه لم يعد يخشى أو يذكر فاجترأ على العبور بالطريق مرة بعد مرة وعبر بها ثلاث مرات أو أربع على الأكثر وكانت الرابعة هي التي فوجئ فيها بهذه المفاجأة التي لم تكن في الحسبان .

إنه لم ير صاحبته بعد اللقاء الأخير في أثناء الأشهر الوحشة . إنه اجتنب الأماكن التي عساه أن يراها فيها ولزم بيته في معظم الأيام وعلم أنه ما من مرتاد أو متنزه يقصد إليه إلا وهو خليق أو يعاوده ببعض الذكريات إن لم يعاوده ببعض ما يسوؤه أن يراه .

فلما عبر الشارع المهجور في تلك الليلة مطرقا كعادته حين يسير على غير قصد إلى مكان معلوم .. سمع من جانبه صوت يناديه .. صوتا يعرفه بين ألف صوت . بل بين جميع ما خلق الله من الأصوات والاصداء :

صوتها هي بعينها يهنف به :

-أهو أنت ؟

أهو أنت .. سمع هاتين الكلمتين فأحس لهما صدى كانفغار الهاوية تحت السفينة في البحر اللجي من أثر عاصفة أو زلزال ، وقبل ان يجيب ذلك السؤال الذي لا يحتاج إلى جواب وفي أقل من رجع الصدى بل في أقل من اللمحة الخاطفة التي انقضت بين ارتفاع راسه إليها و التقاء نظره بنظرها .. هجم على نفسه طوفان من الدوافع والهواجس التي لا يوجد لها اسم في اللغات الإنسانية لأن اللغات الإنسانية لا تستطيع أن تضع اسما لألوف النقائض والمفاجآت التي يجتمع فيها الرعب والسرور والشوق والنفور والهيام والاشمئزاز وتريد فيها النفس أن تقف وتريد فيها القدم أن تسير بل تريد فيها النفس أن تقف لأنها لا تقوى على أن تريد.

ولو أنه رآها عند أول الطريق قبل أن يفاجئه من صوتها هذا الهاتف الطارئ لعله كان يعرف ما هو مقبل عليه ويستعيد في نفسه شيئا من ذلك العزم الذي أعناه على القطيعة وأمده بدواعي الاصرار عليها ، كلما جنح إلى اللين والإغضاء والمغالطة .

ولكنه أخذ على حين غرة .

فوقف هنية لا يدري ما يقول .

ووقفت هي أيضا لا تدري ما تقول ، وكأنما ندمت على الكلمة لأنها لم تسنع لها جوابا سريعا ولم تزل تخشى ما يجيء به ذلك الجواب فأومأت إلى مركبة قريبة واقفة بين المركبات الكثيرة وإذا بهما يسيران معا إلى تلك المركبة فتجلس فيها ويجلس هو إلى جانبها وهي تقول :

هذا خير من أن يرانا الناس مشدوهين كالصنمين!

والواقع أن الناس التفتوا وجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويتهامسون .

فقال لها :
صدقت . هو خير .

ثم صاح الحوذي : إلى أين يا بك . ؟

فلما لم يسمع ردا من البك عاد يسأل : إلى أين يا سيدتي ؟

فهمست صاحبتنا : ألا تقول للحوذي إلى أين ؟

فأجابها وهو يوجه خطابه إلى حيث تشاء.

وكأنما ندمت مرة أخرى على الركوب وعلى اللقاء وعلى السؤال لأنها كانت تنتظر من صاحبها لهفة على مكان من أماكن الرياضة المعهودة التي ألفا أن يترددا عليها .. فجلست صامتة .

وجلس كذلك صامتا .

وطال الصمت .ز لا لأنه كان يريده أو لأنه كان يأبى الكلام .. ولكن لأنه كان يفتش عن كل كلام في الدنيا فإذا هو يهرب أو يستعصي ولا ينقاد ..

وكان الكلام الذي يريده هو التواعد إلى غد حيث يلتقيان في المنزل وحيث يقولان ويعيدان ويتأهبان للعذر ويتأهبان للملام .

ولكن هذا هو بعينه الكلام الذي لا يريده!

يمنعه أن يفوه به مانع الكبرياء ومانع الخوف من تجديد ما فات ومانع الشك فيمن تصاحب وفيما تضمر وفيما عسى أن تلقى به كلامه في دخيلة نفسها من الزراية والاستخفاف .

وطال الصمت وقالت وكأنما تناجي نفسها :

يحسن بنا أن نقف للنزول .

واعترف هو في طوية نفسه أنه لا يريد أن تنزل قبل أمن يقول لها شيئا أو يسمع منها شيئا .

واعترفت هي في طوية ضميرها أنها لا تريد أن تنجز تهديدها ولا تريد أن تبرزه في صورة التهديد لأنها تعلم أن جواب صاحبها الوحيد على التهديد هو التحدي .. أو هو تركها تنزل وحدها وإن كان يود استبقاءها في الحقيقة ...

وبعلها أخطأت في حسابها هذه المرة لفإن صاحبها بعد أن جلس إلى جوارها وبعد أن احس حرارة جسمها وبعد أن تلقى أنفاسها على صفحة خده وهي تميل إليه تنتظر كلامه وبعد أن غاص في تلك الغيبوبة التي استنام إليها كما يستنيم الساهر البعيد العهد بالنوم إلى أول ضجعة على الفراش .. وبعد أن أصبح هو وعزيمته شيئين منعزلين لا ينفع فيه دعاء ولا استحضار .. بعد هذا كله لعلها لم كانت لا تخاطر كثيرا إذا هددته بالنزول من المركبة واقتضاب ذلك الصمت العقيم .

لكنها لم تهدد ولم تنزل .. بل صاحت غاضبة :

مابالك لا تنطق ؟ أمعقود السان وأنت لك لسان كالثعبان ؟

وربما أحب أن ينفي عنه تهمة الاضطراب والحصر والضيق بالكلام في مفاجئة اللقاء .

فقال لها وهو يتلعثم :

أين كنت .؟
قالت :

في السينما!

قال من حيث لا يشعر بمعنى ما يقول :

مع من ؟

فأجفلت مقطبة وأجابت بلهجة فاترة ولكنها مفعمة بالتهكم والتأنيب :

أولا أذهب إلى السينما إلا مع أحد ؟ ألا تزال في ضلالك القديم ؟

قال :

وماذا بدا لي من الهدى الجديد فأعدل عن الضلال القديم ؟ و لماذا صرفت كلامي إلى ما فهمت ؟ ألا يجوز أن تذهبي إلى السينما مع سيدة ؟ فلماذا تستغربين السؤال . ؟

قالت:

لأنك غريب في هذه الليلة . ماذا تقول ؟ لأنك غريب في كل حين ! ثم اقتضبت على غير انتظار وخهي تشيح بوجهها وتهمس بصوت مسموع :

هذا شرح يطول ، ونحن نهيم في الشوارع على غير مقصد ..فأولى بنا أن نرجئ الحديث إلى وقت آخر ..
ألا ألقاك غدا في المنزل .. غدا في الساعة الخامسة . سمعت ؟
قالتها وهي تستوقف الحوذي عند محطة الترام .

وإنها لتنزل من المركبة إذ تعمدت أن تدنو بوجهها من وجهه وتزم شفتيها وتغمض جفونها قليلا وهي تنظر إليه إلى غير جهة .

فقبلها كأنه أداة كهربائية ديس علة مفتاحها وشعر بالندم وشفتاه لا تزالان على شفتيها .. ولكنه شعر به وشعر بنفسه في تلك اللحظة غريقا بعيدا كما يشعر بالجسد الغريق الهامد يراه في أعماق الأوقيانس الهادر وقال وهو أيضا نادم :

غدا في المنزل .

قالت : الساعة الخامسة .. موعدنا القديم..

الموعد

فارقته على موعد اللقاء في الخامسة موعدنا القديم .. وكأنما كانت كلمة موعدنا القديم وحدها طلسما ساحرا نقله من حالة إلى حالة وأخرجه من الحذر والتردد إلى الراحة والاستبشار .. فاحتجبت عنه صفحة الشكوك والآلام والمنغصات ولم ير أمامه إلا " الموعد القديم " بال " المواعيد القديمة " في كل يوم وماكانت تحتويه من سرور ومتعة وصفاء وذكريات لا تزال مرتسمة في الذهن سارية في الجوارح كأنها وظيفة من وظائف الأعضاء .

وانطلق من المركبة خفيف الخطى موفور النشاط يكاد لا يعرف أحدا ويكاد لا يعرفه أحد من كان يراه قبل ذلك بساعة أو أقل من ساعة.

وأول ما خطر له أن يدخل في ذلك المساء دار " الصور المتحركة " التي كانا يلتقيان فيها معظم الأوقات كأنها باب كان موصدا أمامه ففتح على مصراعيه أو فاكهة ممنوعة رفع عنها المنع والحرمان .

ومن عجائب العاطفة الإنسانية أنها أبدا مولعة بالمراسم والشعائر فلا تستولي على النفس حتى ترسم لها طقوسا وعادات تذكر الإنسان بطقوس العقائد والعبادات .

فلما خطر له أن يقصد إلى دار الصور المتحركة أو إلى الحرم الذي كان ممنوعا حتى ذلك المساء لم يكتف بتذكرة واحدة بل طلب له تذكرتين اثنتين وهو لا ينوي أن يصطحب أحدا ولو جاءه أحد يصطحبه لفر منه كما يفر المرء من غريم .

وقضى الوقت الباقي إلى الساعة التاسعة في قلق واشتياق كأن موعد التمثيل هو موعد اللقاء المنظور .

ثم بدء عرض الصور وهو يزعم لنفسه أنه يشهد الرواية ويتتبع الممثلين والممثلات وليس في خلده من ذلك شيء إلا كما يرى الناعس الموهوم ما حوله من الأشباح أو يسمع ما حوله من الأصداء كل ما يثبت في خلده أنه أشباح وأنها اصداء .

ثم جاءت فرتة الاستراحة فإذا الفتي الذي يبيع هناك بعض الحلوى والمرطبات مقبل عليه في دهشة واستفهام يسأله :
أكنت مسافرا يابك ؟

وقبل أن يسمع الجواب أسرع يقول : إن السيدة كانت هنا في هفلة الغروب .

وإذا صاحبنا يسأله وهو لا يقصد السؤال . ولو فكر في سؤاله قبل أن ينطقه لكتمه وأخفاه :

أكـــــــانت وحدها ؟

وخيل إليه أنه يلاحظ في نظرات البائع ولهجته تلميحا خبيثا يقول له ما لا يريد أن يعرفه ، ولا يريد أن يجهله في الوقت نفسه فسلبته تلك الملاحظة كل طمأنينة إلى ما سيقوله البائع من خبر مقبول أو خبر مرفوض وود لو أنه يسكت فلا يجيب بشيء .

ولكن البائع لم يزد على أن هو رأسه وقال :

لا أدري .. كان إلى جانبها سيدة ولعلها كانت معهـــــا .

فاندفع من صاحبنا سؤال آخر كما اندفع منه السؤال الأول وهو يغالط نفسه ، يحسب أن يتهكم أو يريد أن يحسبه متهكما غير جاد في مطاولة الحديث :

جانبها ؟ أي جانب ؟ إن للإنسان جانبين لا جانب واحد..

وهنا ظهر من البائع الخبث أنه فهم كل ما هنالك من الشك والاستطلاع فقد عودته صنعته أمثال هذه المواقف فلم يفته أن البك يستطلع ويرتاب ...فتمهل قليلا وقال :

كان إلى جوارها هذا الممر وأشار بيده إلى أحد الممرات التي بين الصفوف .

فارتفع كابوس ثقيل عن صدر صاحبنا، وأحب أن يعتقد أن كلام البائع خليق أن يزيل من نفسه جميع الشكوك ، لا مجرد الشك الذى خامره عن زيارة السيدة لدار الصور المتحركة فى ذلك اليوم.
إلا أنها طمأنينة عاجلة لم تلبث أن ذهبت كما جاءت فى طرفة عين ، واذا بصاحبنا يناجى نفسه ذلك النجاء الذى كان غائبا عن خاطره منذ فترة وجيزة . ياعجبا ! إنى لأجتنب هذه الدار كأنها تجمع شياطين الأرض كلها فى حيز واحد، وهى تزورها ولا ترى فيما كان بيننا من القطيعة موجب لاجتنابها .. لو كان قلبها خاليا من هوى أخر لما استطاعت ذلك و لفعلت كما كنت أفعل أنا إلى هذا المساء .. والأغلب الأرجح أن هذا البائع يعلم من خفية الأمر أكثر مما يبوح به أو يريد أن يبوح . ألا ترى إلى غمزات عينيه وحركات وجهه ونغمات كلامه ؟

فماذا على المنحوس لو أفضى بما عنده وأراحنا من هذا العناء.

وعاد صاحبنا يتساءل فى ضميره : ما عنده ؟ أهكذا جزمت سريعاً بأن" عنده" سرا وأنه يستطيع أن يبوح بأكثر مما قال ! ألا يجوز أنه لم يعرف سرا على الإطلاق ، وأن ما حسبته غمزات ونغمات مريبة فى صوته إنما هى عادة هذه الطبقات عندما تتحدث لرجل عن امرأة ، أو عندما تتحدث فى كل شأن بين وجال ونساء.
يجوز
لا بجوز!

وهكذا انطلقت في مخيلة صاحبنا أوهام وأشباح لا عداد لها فى تلك الساعة القصيرة ، ولا يقاس إليها كل ما شهدته تلك الدار من الأوهام والأشباح ومن المبكيات والمضحكات.

ولم ينقذه مما استغرق فيه إلا انتهاء التمثيل وزحام ولقاء بعض الأصحاب وسهرة كثرت فيها الشواغل وطال الحديث.

ونام تلك الليلة على أثر انفضاض السهرة وكان يقدر أنه لن ينام.

ولكنه لو قضى الليل كله ساهرا لما عمل فى اليقظة إلا الذى عمله وهو نائم . حلم وتفكير وهواجس وخيالات تضطرب وتصطخب ويتبع بعضها بعضا، ولا تميل إلى جانب الرضا لحظة حتى تعود إلى جانب الوساوس والمنغصات.

ثم استيقظ فى الصباح وهر يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقا غريبا يجهل ما عنده من نية وشعور:
أتنوى أن تنتظرها فى الموعد .

فما هو إلا أن وضح السؤال فى خاطره حتى شعر بأنه سؤال غريب يدل على ما وراءه ، وحتى بدت له الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار.

وهنا دارت فى سريرة هذا الرجل – هذا الرجل الواحد – مناقشة عنيفة طويلة كأعنف ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين ، كلاهما مصر على عزمه وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله إلى رأيه ، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه في هذا الحوار من أساليب الإقناع و الإغراء والرياء والتصريح:

-كيف لا ينتظرها ؟ أتعطى سيدة موعدا ولا تنتظرها فيه ؟أهذا يليق برجل ؟

-ولكنها ليست سيدة كسائر السيدات و لا زائرة من زائرات المجالس العامة اللواتى تقع بيننا وبينهن هذه التكاليف . إن هذه القيود لا حساب لها في العلاقات التي انطلقت من جميع القيود.

ولكن مم عساك أن تخاف . انتظرها وقل لها إنك لا تريد أن تراها بعد هذا الموعد!

عجبا أتجهل ما أخافه . أتجهل تلك الآلام التي لا حيلة فيها لمخلوق ولا تزال تبتدئ من حيث تنتهي وتنتهي من حيث تبتدئ لأنها تبتدئ وتنتهي من الشكوك وليس للشكوك قرار حاسم ولا مقطع بيقين ؟

-لكن علام كل هذه الشكوك التى ليس لها من أول ولا أخر .. أصرفها عنك مرة واحدة وأفرض أسوأ الفروض – وقدر أنها تخونك وأنك تلهو بها فى ساعات فراغك ، ولا يعنيك من شأنها بعد ذلك إخلاص ولا خداع.

-أأنت مخلص فيما تقول ؟ وكيف تنقلب هذه المرأة التى كانت كل نساء الأرض عندى، وكل ما يخفق له قلبى، فتصبح بين مساء وصباح وهى لهو ساعة ومتعة فراغ ؟ أهذا خداع يجوز على إنسان ؟ أو تضمن إذا أنا اتخذتها لهوا ومتاعا أن يتمكن اللهو ويطيب المتاع ، واننا لا ننكفئ بعد أيام أو بعد أسابيع إلى استفراقنا القديم وشكوكنا القديمة وعذابنا الأليم ، لا لا هذا محال باطل ، واستدراج لا يستر ما وراء وتزوير لا أرضاه .

-لكن الفتاة مليحة مع ذلك .. تصور بضاضتها وهى جالسة إلى جانبك فى المركبة ، وأنفاسها، وهى تهب على خدك فتسرى فى جميع أوصالك وقبلتها وهي ترتعش على شفتيك ، وحلاوتها وقد زادها النحول فى هذه الأشهر حلاوة على حلاوة .

ونحولها نفسه وما ينبئ عنه ويكشفه لك من المودة والحنين ، وتصور ذلك كه بين يديك وتصور هذا كله بين يديك في مدى بضع ساعات وأنت مع هذا تفكر ... تفكر فيماذا ؟ فى نبذ هذه النعمة التي تسعى إليك ، وفى الخوف والجبن والفرار!

و هذا حق كله . ان الفتاة لمليحة ولا نكران في ذلك . ولكن!

-ولكن ماذا يأخى ..! انتظرها واله بها ولا تدعها لغيرك ينال منها مالا تنال .. ولا تستضعف عزيمتك هذا الاستضعاف المهين وأنت رجل ذو عزيمة ومضاء .. فإذا عاودتك الشكوك فأنت قادر على قطع العلاقة بينك وبينها كما قطعتها من قبل ، والا فأنت رابح ما استرجعت من متعة وسرور.

-عزيمتى ا وأين هى عزيمتى إن كانت لا تنجدنى فى هذا النزاع العنيف ؟

-إنها تنجدك فى كل حين ولكنك أنت لا تريدها الأن .. لا تريد عزيمة الجفاء والقطيعة ، ومتى أردتها غدا فهى حاضرة لديك ، وهى فى كل ساعة طوع يديك .. ومن هذا ألا يشوقك أن تستمع إلى حديثها عن أيام القطيعة بينكما ، ألا يجوز أن تفسر لك بعض الغوامض ، وتريك من البواطن ما ينقض الظواهر وتصف لك من حالها فى غيابها عنك ما يهمك ولو من باب الدراسة والاستقصاء ا

-

وتعاقبت الساعات ساعة بعد ساعة فى هذا الحوار الحثيث ولا قرار.

ونناول صاحبنا غداءه ولا قرار.
وجاءت الساعة الرابعة ولا قرار.

نعم لا قرار فيما يشعر به صاحبنا أو صاحبانا المتحاوران على أصح التعبيرين . غير أن الذى حدث بعد ذلك يدل دلالة لا شك فيها على أن الإنسان يقرر ما ينويه وهو لا يشعر ولا يعترف بشعوره ، بل يدل على أن صاحبينا المتحاورين لم ينفردا بالميدان فيما شجر بينهما من عراك عنيف ، وانما كان معهما ثالث لا يدريان به وهما ماضيان فى الإقناع والإنكار.

ففى الساعة الرابعة وبضع دقائق – والحوار على أشده بغير قرار – وجد صاحبنا أنه يلبس ملابس الخروج ويفتح باب حجرته وينحدر على الدرج إلى حيث لايعلم إلا أنه خارج من المنزل وكفى. ومضى فى طريقه مهرولا كمن يمضي إلى غاية معلومة يخشى أن يفوته لحاقها وركب السيارة لم يعرف إلى أين تحمله إلا بعد أن استقر فيها ، واستطاع أن يمكث ثلاث ساعات لا ساعة واحدة ولا نصف ساعة كما كان يتمنى وهو يعالج أن ينجو من الموعد المحدد.

ثم ساوره القلق ودلف إلى منزله بالسرعة التى فارقه بها، واستحالت كل حريته قبل الخروج إلى حيرة أخرى، أو شوق آخر: وهو أن يعرف ما حدث فى غيابه بجميع تفصيلاته . هل حضرت فى الساعة الخامسة ؟ أو حضرت قبلها أو بعدها ؟ ماذا قالت حين علمت بخروجه ؟ وماذا بدا على وجهها وهى تصدم بهذه المقابلة ؟ واذا لم تحضر فما الذى عاقها عن موعدها ؟ ولماذا ضربت ذلك الموعد باختيارها ضربته وهى تنوى أن تخلفه من اللحظة الأولى، أو طرأ الحائل بعد ذلك على منها ؟

وإنه ليفتح الباب بالمفتاح الذي في جيبه ولا ينتظر أن يدق الجرس كعادته في الأأوقات الأخرى إذ بالخادم يصادفه وراء الباب وهو يظن – بل يرجو – أن يخبره على الفور أن سيدة حضرت في غيبته ولا تزال في انتظاره ويعلو به هذا الوهم حتى عجل الالتفات إلى حجرة الاستقبال ليلقى السيدة التي تنتظره فيها .

ولم تمض في ذلك لمحة خاطفة والخادم شاخص لا ينبس بحركة ولا يلوح عليه أنه يحمل خبرا من الأخبار يستحق أن يقال ويساوي تلك اللهفة التي تعتلج في صدر صاحبنا.

فأسرع صاحبنا سائلا:

ألم تحضر إلى هنا سيدة .. ألم تقل شيئا ؟

فقال الخادم في فتور غريب : لا أعلم!

فانفجر صاحبنا غاضبا :

كيف لا تعلم ؟ الم تكن هنا ؟ هل هي أوصتك بأن تقول ذلك ؟

قال الخادم وفي صوته احتجاج من يستغرب ولا يفقهمعنى هذا الاتهام:

يا سيدي قلت لك لا اعلم . لأنك نزلت من هنا وأنا نولت وراءك حسب المعتاد في سائر الأيام .

فاشتعل صاحبنا غيظا وهو أن ينقض عليه لولا أن هرب الرجل من أمامه فتبعه إلى باب الخدم وهو يعلنه بالطرد وألا يعود ليريه وجهه مرة أخرى وبم يصفح عنه إلا بعد ثلاثة أيام بعد أن عذره بأنه لم يطلب منه ألا يغادر المنزل بعده

الشكوك

من النادر جد أن يتواعد محبان على اللقاء بعد فراق طويل ثم لا يسرعان إلى موعد اللقاء بلهفة شديدة واشتياق عظيم ، إن لم يكن حبا أو حنينا أو رغبة فى المتعة والسرور، فعلى الأقل من قبيل الفضول والاستطلاع والرغبة الملحة عند كل منهما فى الوقوف على أخبار صاحبه وأحواله أيام الغياب الطويل : هل

أحبت غيره ؟ وهل أحب
غيرها ؟ وهل سلت ؟ وهلا سلا ؟ و بماذا يشعران فى الحب الجديد ؟ أو ماذا بقى عندهما من الحب القديم ؟ وماذا تقول له حين تخلو به ؟ وماذا يبدر من كلامه حين يخلو بها ؟ وأشباه ذلك من الأسئلة التى يلقيها كلاهما على نفسه ويحسب أنه فى أشد الحاجة إلى الوقوف على جوابها. فربما كان هذا الفضول من أقوى مظاهر الحب ، ومن أوثق روابط الاتصال بين كثير من الناس محبين كانوا أو غير محبين.

فإذا حدث غير ذلك واجتهد أحد العاشقين أو كلاهما فى اجتناب الموعد المنتظر بعد طول العزلة والجفاء، فلابد أن يكون بينهما شبح قائم من الألام والأكدار يغطى على جميع المشوقات والمرغبات ، ويعكس الفضول والاستطلاع فيستحيل إلى صمم ونفور ويصبح كل شيء أهون من تجديد تلك الحالة المكروهة والعودة إلى ذلك الشبح
المرهوب.

وهكذا كانت الشكوك التى تمثلت لصاحبنا فانساق بغير وعى ولا إرادة إلى اجتناب الموعد، والفرار من المنزل ، والهزء له إغراء وتشويق ينبعث فى أعماق حسه من شيطان ذلك الشغف القديم.

كانت شكوكا مريرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الأرض وكل حلاوات الحياة كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويدا رويدا لا يزال ينطبق وينطبق وينطبقحتى لا منفمس ولا مهرب ولا قرار، وكثير ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة فى مداعبة الفريسة قبل التهامها فينفرج وينفرج وينفرج حتى يتسع اتساع الذضاء بين الأرض والسماء ثم ينطبق دفعة واحدة حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ولا مكان للتحول والانحراف يطل المكان فلا مكان ولا أمل فى المكان ، ووجب البقاء حدث أنت فى ذلك الضديق والظلام.. فلا انتقال ولا رجاء في الانتقال.

وكان صاحبنا المشدود بين حبلين يجتذبه كلاهما جذبا بمقدار واحد وقوة واحدة ، فلا إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولا إلى البراءة ولا إلى الاتهام .. بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك ، ولا تبطل التهمة فى هذا الجانب حتى تبطل التبرئة من ذلك الجانب هكذا إلى غير نهاية ولا إلى غير راحة ولا استقرار.

وضاعف هذه الحالة ذكاؤها من ناحية ، و طبيعة ذهنه وتفكيره من ناحية أخرى، فهى من الذكاء بحيث لا تقدم على عمل واحد أو حركة واحدة لا يختلف فيها وجهان ولا تقبل التضليل والنكران ، وهو في تفكيره وطبيعة ذهنه يخلق الاحتمالات الاحتمالات الكثيرة فلا يجوز عنده احتمال راجح إلا جاز عنده فى اللحظة نفسها احتمال راجح فى قوته ووزنه وجوازه ، ولا يدفع هذا أو ذاك إلا بدافع حاسم لا تردد فيه.

ألم لا نظير له فى ألام النفوس والعقول ، وحيرة لا تضارعها حيرة فى الإحساس والتخمين ، وأقرب ما كان يشبه به هذه الحيرة حالة الأب المستريب الذى يشك أفجع الشك فى وليد منسوب إليه : هل هو ابنه أو هو ابن غيره ؟ ومن هو ذلك الطفل الصغير الذى يتقاضاه حقوق البنوة على الآباء ؟ هل هو رمز الحب والعطف

والصدق والوفاء، أو هو رمز الخداع والخيانة والاستغفال والاحتقار ؟ هل هو مخدوع فى عطفه عليه ، أو هو مخدوع فى نفوره منه ؟ وكيف يفصل في هذين الخداعين ؟ . وكيف يطيق الصبر على واحدة منهما وكلاهما لا يطاق.

بذلك كان يشبه حيرته وهو يحاول الاستمتاع بعاطفته التى هو مستغرق فيها، ويحاول فى اللحظة بعينها أن يبترها وينساها ولا يعود إليها. ثم لا يدرى فى أى المحاولتين هو مصيب . ولابد أن يدرى ، وهيهات لا سبيل إلى الدراية بحال!

واذا كان بعض الشكوك فى العشق من وساوس الأوهام ، فمما لا نزاع فيه أن العاشق أصدق الناس فى شكوكه حينما يبنيها على أسباب صحيحة وحقائق ملموسة ، لأنه يعرف صاحبته معرفة لا يخفى معها عارض من عوارض التفكير، ولا لمحة من لمحات العين ، ولا همسة من همسات الضمير: يعرف نظراتها ويعرف كلماتها، ويعرف ما تقوله عن سجية وما تقوله بتكلف واصطناع ، ويعرف أن بعض الخشونة أدل على الحب والإخلاص من بعض المجاملة ، ويعرف نفسها وكيف تستتر فيها الخفايا. ويعرف جسدها وكيف تختلج فيه النوازع والشهوات.

وقد يسأله من يسأله كيف خامرته الشكوك فيضحك من نفسه أن يجيبه بما يلوح له أو يطلعه على بعض تلك الأسباب ، وقد يؤثر فى معظم الأحيان أن يكتمها ويموها على أن يفضى بها إلى إنسان كائنا ما كان.

وبعد فهل الغدر فى الحب مستحيل ؟

كلا ! ليس هو بمستحيل ولا مما يقارب المستحيل ، وليس صاحبنا بالذى يصدق ذلك ولا صاحبتنا بالتى تصدقه وتدعيه.

لقد اعترفت له بعلاقتين سابقتين : إحداهما متينة مستحكمة طويلة والأخرى هوجاء حامية سريعة ، واحداهما مع كهل يقارب الأربعين والأخرى مع فتى فى نحو الخامسة والعشرين . واحداهما صيدت فيها ولكن على غير كره منها، والأخرى كانت فيها الصائدة وهى التى نصبت الشباك ، فوقع الصيد على عجل وأسرع الحراس
الحانقون فأطاروه!

اعترفت له بما كانت تحتال به من الحيل البارعة لتلقى عشيقها الأول ، وبما كانت تعمى به على من حولها حتى لا يرتابوا فى أمرها و اذا استرابوا لم يجدوا عليها ما يثبت الريبة ويقطع اللسان.

واعترفت له بالردود المفحمة التى تدبرها لترغم المتهمين على السكوت.

واعترفت له بما تخجل منه المرأة المعتزة بجمالها ومكانتها، فقالت له إنها لم تكن على يقين من حب عاشقها الأول ، ولم تكن تبالي أن يحبها الحفاء بعلمها أنها هى تحبه ، وذهبت فى امتهان كرامتها – وهى مغرورة بفتنتها وامتيازها إلى حد من الخضوع لا يحمد إلا في التدين والإيمان . فقالت إنها لمحت منه مرة أنه يطيل

النظر فى مجلسها إلى امرأة أخرى من صديقاتها .. فخطر لها أن تناجى نفسها سائلة:

هل يجسر يا ترى على أن يطلب منها الوساطة بينه وببين تلك المرأة فى التقريب والتمهيد ؟! ... قالت : فراعنى هذا السؤال . ولكنى عدت فشعرت أنى سأفرح بأن أسره وان جاء سروره من هذا الطريق المهين.

ثم انقطعت هذه العلاقة على الرغم منها وعلى الرغم منه ، وتمادت بها الوحدة وهى فى دهشة مخيفة ، فجعلت تلتفت إلى شاب وسيم من الجيران ، ثم تمعن فى الالتفات إليه حتى أصبح انتظاره ، وهو عائد إلى منزله فى الهزيع الأخير من الليل شغلا لها شاغلا فى اليقظة والمنام ، وأخذت تحاسبه فى طويتها على هذه السهرات وتتخيل مع من تكون وكيف تكون !... ويزيدها ذلك لجاجة فى الولع ولجاجة فى الانتظار ولم يلبث هذا الالتفات منها أن أدى إلى الالتفات منه ثم إلى التحية ثم إلى لقاء جنوني في المنزل الذي يحيطوها فيه والأقربون وكانت هذه المغامرة العجيبة هي العلاج الباتر لذلك الجنون العجيب.! ..

وراح صاحبنا يذكر كيف اجتمع بها أول مرة . ويذكر ما تحدثت به إليه فى أول خلوة : لم يطل بهما الجلوس يومئذ حتى استأذنت فى الانصراف لأنها ذاهبة إلى موعد مع صديق ، وأرته خطابا من ذلك الصديق يقول لها فيه أنه يشتري في ذلك اليوم سيارة ويحب أن يستئنس برأيها وبذوقها فى اختيار اللون والطراز فأذن لها صاحبنا وهو يقول مازحا: هذا موعد يرشحك لصناعة مفيدة ... فلا تهمليه..

قالت له فى أول لقاء بعدها: لشد ما كنت أتوقع منك أن تستبقيني وتؤخرني عن ذلك الموعد . ولو قلت لى :لا تذهبى ! لما ذهبت ... ولو مزقت الخطاب أو خطفته من يدي لجزيتك على صنيعك أحسن الجزاء

كانت تحب الضحك وتفطن إلى الفكاهة وتضحك أحيانا حتى تشرق عيناها الواسعتان بالدموع ، ولكن صاحبنا لا يذكر أنها ضحكت يوما كما ضحكت أمامه وهي تمثل الصديق صاحب السيارة وتروى ما جرى بينها وبينه حتى اجترأ أول مرة.

اقتراح خطير، بعد تمهيد وتحضير، وحذر وتحذير وما هو الاقتراح الخطير.

قبلة! .!!

نعم قبلة ، وأكدت الكلمة وهى تروى الحكاية مرتين.

قالت إنه كان ينتظرني في طريق الزمالك لمحت أول ما وقع نظري عليه أنه مهموم قلق يخفي على أطراف شفتيه نية من النيات وكان ذلك بعد أن التقينا عدة مرات وانفردنا في الخلوات ساعات فلو يعسر علي أن أستشف تلك النية وراقني أن استدرجه في الافصاح عنها لأرى كيف يتدرج في الكلام فأضجرني كثيرا قبل أن يستجمع في قلبه القدرة على أن يقول : يا فلانة ؟

قلت نعم يا فلان.

قال : إن لي أمنية أحب أن أفاتحك فيها وأرجو ألا ترفضيها ولا تسيئي تأويلها.

قلت : إنني أحب أن أرى أمانيك تتحقق ولا سيما الأماني التي فيها لك الخير والنجاح.
الخيروالنجاح.

قال : أشكرك .. لكن هذه الأمنية فى يديك أنت ؟

قلت كالمستغربة : فى يدى أنا ؟ ما علمت قبل الآن أنني رئيسة عليك ولا أنني قادرة على نفعك وتوفير ما تتمناه!

فأحجم قليلا وخشييت أن يعدل عن مجرى حديثه فعدت أقول : ومع هذا أسمع منك هذه الأمنية فلعلى أشير عليك بما يفيد.

وبعد جهد جهيد صرح وهو يستغفر ويتلعثم بأنه يتمنى على الله أن أسمح له بقبلة.!

فسكت هنيهة لا أدرى هل أضحك أو أتغاضب . وظن أننى أتجهم وأقطب وأننى أهم أو ألومه وأخاطبه بما يسوؤه ، فأسرع إلى الاعتذار، وأسرعت أنا إلى الكلام لئلا
أضحك ، قائلة:

أو هذا مما يحسن بك يا فلان ؟ لكأننى بك غدا تتمادى إلى أكثر من ذاك..

فصاح كمن مسته نار:

يافلانة . معاذ الله.

لم ينس صاحبنا كيف كانت تضحك وهى تحكى له هذه الحكاية ، واستدل من ضحكها أكثر مما استدل من كلامها على مبلغ استخفافها بما يسمونه الصداقة بين النساء و الرجال . فما الذى يمنعه أن يصدق أنها تستخف بالوفاء و تمضى مع أيسر الأهواء لا بل هى قد اعترفت له بما هو أدعى إلى الشك والريبة من جميع ما تقدم..

فقد غضب منها وغضبت منه قبل الغضبة الأخيرة مرات عديدة ، بعضها يعقبه الصلح في يومها وبعضها يتجاوز الأيام وقد يتجاوز الأسابيع ، ففى إحدى هذه المرات افترقا بد عراك عنيف بالغ فى العنف والتهجم فوق ما تعودا من عراك وصدام . وسافر إلى مصيفه و سافرت إلى مصيفها ، ولا مطمع لهما فى لقاء، وبلغ من يقينه بالفراق الفاصل أن عاد من سفره وهو لا يترقب منها سلاما ولو سلام المجاملة والتكليف ، ولكنه

بعد أيام قليلة تلقى غلافا فيه صور شمسية تمثلها إلى جانب بعض المشاهد الخارجية التى يرحل إليها المصطافون والسائحون ، ومضت أيام معدودات إذا بجرس التليفون يدق وإذا بالمتكلم ذلك الصوت الذى لا يلتبس عليه بين ألوف الأصوات:

الحمد لله على السلامة!

سلمك الله وعافاك!

هل لى أن ألقاك اليوم ؟

نعم . تفضلى!

أتفضل . لا . لست أتفضل ، ولكنى أزورك لألتمس الغفران .. هل فى وسعك

أن نمثل دور الكاهن فى الديانة المسيحيه ؟

قال : أخشى أن يكون دورك إذن هو دور الخاطئة ؟

قالت : هو ذاك . فإلى اللقاء .. فالتليفون لا يتسع لمثل هذا الحديث.

لم يشعر ذلك اليوم وهو ينتظرها بخداع ولا باستغفال ولا احتقار. ولكنه شعر بخسارة وأسف ، وانتظرها كما ينتظر الطبيب مريضا يلجأ إليه ، واستقبلها عاطفا عليها تطلعا إلى ما وراء حديثها مستعدا للتسامر فى الإصغاء إليها. فدخلت وهى تقول فى غير احتجاز ولا امتناع:

-لا قبلات ولا تحيات حتى تعرف قصتى وأعرف رأيك.

-اسمع يا فلان . إننى لا أؤمن بصداقة المرأة للمرأة ولا عزاء لى فى معاشرة

الصديقات المزعومات على الإطلاق فإن لم يكن إلى جانبى رجل أهابه وأحبه وأعتمد على سنده فأنا فى وحشة الهالكين ، وأنا ضعيفة ضعيفة ضعيفة لا طاقة لى على دفع الغواية . وقد افترقنا يائسين ليس لك حق عندى، وأنا لا أحاسبك على شطحاتك في مصيفك إن كانت لك شطحات ، ولكنى أسمح لك أن تحاسبنى على الصغيرة والكبيرة وأبوح لك بأننى زللت فى المصيف وانغمست فى صلة غرامية ليس فيها غرام في الحقيقة ، ولم أحضر إليك اليوم بل لم أرسل الصور إلا وهيأت نفسي لاستئناف مودتنا القديمة . وها أنذا الساعة ، بين يديك فماذا أنت قائل ؟ هل تقبلني ؟.

فاستزادها من خبر تلك الصلة التى لا غرام فيها كما تقول ، واسترسلت هى فى تفصيلات لم تستر فيها سرا ولم تصبغ فيها أمرا بغير لونه ، ولم تقف دون معرة أو نقيصة كأنها تفرغ قلبها بين يدى الكاهن على حسب " إنذارها" فى حديث التليفون.

قال بعد أن أصغى إليها فى صمت وابهام

إننى يا فلانة لا أملك أن أجيبك هذه الليلة ، وان أنا قبلتك فلست أمن أن أندم وان أنا رفضتك فلست أمن كذلك أن أندم . ولكن دعينى بضعة أيام ريثما أروض سيرتي على عزم وثيق وأخبرك بما صحت ، غير خائف من عواقب العجلة.

وما انقضت كك الأيام حتى استقبلها صافحا وسألها أن تذكر أبدا أنه قد يفهم عذرها من الضعف ولن يفهم عذرا من الختل والخداع ، وحمد لها صراحتها ولكنه فى الواقع لم يسلم من الاحتراس والتواجس منذ تلك الساعة ، ولم يزل على تفاهم دخيل بينه وبين طواياه أنه لا يأوى إلى حصن حصين وأنه مع ذلك هو حصنه الذى لابد أن يأوى إليه.

فلما ساورته شبهات الشك توالت أمامه الدلائل من فلتات اللسان وشوارد الخاطر وعلامات الزينة والحلى والملابس وما إلى ذلك من علامات هى لمن يعهدها أثبت من البراهين وأصدق من الشهود، ورانت السأمة على كل لقاء، وتغلغلت اللواعج والأشجان فى كل فراق وغلبت الاكدار على كل صفاء وكل رجاء. ولم يبق إلا أن يقبلها على أن يستغرق هو فى حبها ويسمح لها هى أن تفرغ لغيره وهذا مستحيل ، أو
يقبلها على أن يلهو بها وتلهو به وهذا أيضا مستحيل ، أو يسوم نفسه قطيعتها وهذا ما قد عليه ، وظن أنه استطاعه وقدر عليه خمسة أشهر.

وانه لفى حسبانه هذا يوشك أن يودع القلق والأسر ويقبل على الطمأنينة والحرية ، واذا به يهاجم فى الصميم ، واذا بالظواهر والبواطن كلها تضمن له وهى تتدفق عليه أنه عائد لا محالة إلى ما ودع من شقاء وألم وليس بين تلك الظواهر والبواطن كلها ما يضمن له أقل ضمان أن يعود إلى ما ودع من ثقة ونعيم . فماذا عساه أن يصنع ؟ لا تسل فكره ولا تسل قلبه ولا تسل ضميره بل سل كل وشيجة من وشائج لحمه ودمه وأعصابه التى عزمت عزمها بغير اكتراث لفكره أو لقلبه أو لضميره ، واستقبلت بإرادتها وهى لا تترجم عن تلك الإرادة إلا بالعمل الواقع دون التفكير ودون التعليل ودون التفسير، فطلبت النجاة بالبداهة المترجلة وحملت الجسد الذي هو قوامه إلى خارج المنزل وهى لا تعى ولا تفقه إلى أين تسير ولا لوم على من يطلب النجاة ، فإنما هكذا تطلب النجاة!

علاج الشك

مواجهة الحقيقة من أصعب المصاعب فى هذه الدنيا.

أولا : لأننا فى الغالب لا نعرف ماهى الحقيقة.

وثانيا : لأننا فى الغالب لا نحب أن نعرفها إلا مضطرين ، حين نيأس من قدرتنا على جهلها ونشك ثم نشك ثم نرى آخر الأمر أن الشك أصعب وأقصى من مواجهة الحقيقة والصبر عليها.

وثالثا : لأننا إذا عرفناها ففى الغالب – أيضا – أنها تكلفنا تغيير عادة من العادات ، وليس أصعب على النفس من تغيير ما اعتادت .. فالموت نفسه لا صعوبة فيه لولا أنه يغير ما تعودناه ، وفراق الموتى لا يحزننا لولا أنه تغيير عادة أو عادات كثيرة.

وقد كانت الحقيقة أنهما – أي صاحبنا وصاحتنا – قد تغيرا كثيرا بعد أن مضت على صحبتهما برهة من الزمن ولكنهما لبثا برهة أخرى من الزمن وهما لا يريدان أن يعترفا بهذا التغيير.

تغيرا فلا سرور لهما في اللقاء ، وقد كان عندهما أكبر سرور يشعر به الإنسان ولكنهما لم يزالا يتلاقيان.

تغيرا واشتد بهما التغير وهما لا يجسران على مواجهة الحقيقة . فلو سأل نفسه هل يريد اللقاء بها حقا أو يريد الفراق لما استطاع الجواب أو لقال في نفس واحد أنه يريد اللقاء ويريد الفراق .

ولو سألت هي نفسها هذا السؤال لكان جوابها أنها لا تعلم لماذا تحضر في الموعد كل يوم ولماذا لا تفضل الانقطاع على الحضور.

وهو لم يجزم بخيانتها كل الجزم فلم يتركها ؟ ولكنه لا يسر بهذا اللقاء فلم يلقاها.

وهي لم تيأس من صلاح شأنه معها أو لعلها لم تيأس من قدرتها على خداعه ويعز عليها أن تتهم نفسها بهذا العجز وهي تفخر بذكائها فلماذا تفقد الثقة بحيلتها وبراعتها واقتدارها ؟ ولماذا لا تجرب كياستهها مرة بعد مرة حتى تنجح أو يستوي لديها الفشل والنجاح ؟

وهكذا ظلا أشهرا عديدة يمثلان سعادتهما الأولى ويخرجان من مسرح التمثيل كل يوم راضيين و ساخطين ، وخير ما وصلا إليه فى تلك الفترة الطويلة أن يظفرا بالتصفيق من المتفرجين .. . ومما وحدهما المتفرجان والممثلان .

وقد كانت الحقيقة أنهما –أى صاحبنا وصاحبتنا – قد تفيرا كثيرأ بعد أن مضت على صحبتهما برهة من الزمن ، ولكنهما لبثا برهة أخرى من الزمن وهما لا يريدان أن يعترفا بهذا التغير.

تغيرا فلا سرور لهما فى اللقاء ، وقد كان عندهما أكبر سرور يشعر به الإنسان . ولكنهما لم يزالا يتلاقيان.

وكلما حان موعد القاء ذهبا إليه كما يذهب الممثل إلى حضور تجربة جديدة بعد أن فشلت تجربته القديمة ، ولابد له من الذهاب ، ولا سرور له فى القعود والإحجام والتسليم بينه وبين ضميره أن الذهاب لا يفيد.

لقد كانا يحضران إلى الموعد بكم العادة التى لم يجسرا بعد على تغييرها لأنه ما كانا يخافان من التفكير فى التغيير و يخافان من التفكير فى ذلك الخواء الموحش الذى يستولى عليهما لا محالة بعد ذلك التغيير.

فهما يحضران لأنهما خائفان من الغياب ، لا لأنهما راغبان فى الحضور.

أما قبل ذلك فما أبعد الفرق وما أهول الاختلاف وما أحب اللقاء بعد طول الانتظار ، وإن أطول أمد لهذا الانتظار ما كان ليزيد على يوم واحد أو بعض يوم في معظم الأوقات.

ولو سألت هى تعسها هذا السؤال لكان جوابها أنها لاتعلم لماذا هوعد كل يوم ، واذا لا تفضل الانقطاع على الحضور.

كانت الساعة الخامسة كأنها علامة موسومة في مدار الفلك بالشهب والكواكب والهالات ، وكان صاحبنا يتعجل الوقت قبل حلولها بربع ساعة فيلتزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقبها إلى منعطف الطريق حيث يلوح القادم أول ما يقبل على الدار وكثيرا ما كانت الغيوم تكفهر والغيوب تنهمر والهواء يعصف باردا قارسا في صبارة الشتاء، وصاحبنا واقف وراء النافذة قبل الموعد بربع ساعة يوشك وهو رجل منقبض الصدر غائم الخاطر أن ييأس من وصول صاحبتنا فى موعدها، ولها العذر كل العذر إذا هى تأخرت ساعات أو عدلت عن الخروج طوال ذلك اليوم ، لا يزال فى مرقبه نهبا لهذا الوسواس لمحة بعد لمحة كأن الزمن قد استحال إلى أجزاء تعد بالملايين وملايين الملايين لا بستين دقيقة فى الساعة وستين ثانية في الدقيقة !! وكلما تقدم جزء من هذه الملايين تضاعف الرجل وتفاقم الحذر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات فى قارورة يرجها الشلال الدافق أعنف ارتجاج . وبعد مليون جزء من أجزاء الزمن تقترب الساعة الخامسة فإذا هى الساعة الخامسة إلا عشر دقائق ! وبعد مليون آخر ثم مليون ثم مليون تقترب ثم تقترب فإذا هى الساعة الخامسة بالدقيقة والثانية .. والويل له إذا تجاوزت هذا الحد ولو إلى دقائق معدودات ، لأن الدقائق المعدودات لابد أن تترجم فى لغة الانتظار والهواجس بالملايين بعد الملايين التى لا يجمعها الحصر والإحصاء، وانه ليطيل النظر إلى الطريق حتى يعتريه شبه غيبوبة لا يحقق الناظر فيها ما يراه تحت عينيه ، فما رآها مرة بعد هذا الانتظار تهل من مطلع الطريق إلا كما يرجع إلى النائم صحوه أو كما يرجع إلى المذهول رشاده وتتقدم وهى تتهادى فى خطواتها التى كأنما تتهيأ كل خطوة منها لعناق مشوق ، ومنفتح الباب وينقسم العالم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما فى الذهن ولا فى الخيال : قسم فيه كل شيء.. وقسم ليس فيه من شيء .. أو قسم موجود وقسم ليس له وجود، والبيت هو القسم العامر الزاخر الحافل الوهاج ، والدنيا هى القسم المهجور الذى لا تتسع قاراته وبحاره ومن فيها وما فيها من السكان لأوسع من مكانها فى خرائط الأطفال والذي يحدث في الشتاء يحدث في الصيف أيام السموم والحرور، فلا تاخير ولا اعتذارولا سلامة مع ذلك من القلق والانتظار حتى يحين الموعد ويستقر القرار.

في تلك الأيام كانت كل هنية لها شعورها المحبوب المتجدد البهيج : إذا انفتح الباب فذلك شعور القائد الذي يفتح باب حصنه ليتلقى نجدة الأمان والاطمئنان إلى زمن طويل وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب إلي مهرب سحيق ، واذا انفتح الباب للوداع فذلك شعور الشارب الذى استوفى نصيبه من العقار وبقى له نصيبه من النشوة والتذكار ونصيبه من الشوق فى الغد إلى مثل هذا اللقاء ومثل هذا الوداع ومثل هذا الانتظار وبين لقاء كل يوم ووداعه ألف لقاء ووداع وألف انتقال من حال إلى حال . وألف سكينة وألف ابتدار.

تلك أيام!

ثم جاءت بعدها أيام

وشتان أيام وأيام.

نعم شتان حقيقة وتمثيل .. وأى تمثيل !! تمثيل اللاعب الذى يساق إلى دوره سوقا لأنه يخشى الفشل لا لأنه يأمل النجاح.

واستمرت المواعيد، واستمر اللقاء، واستمرت السآمة ، واستمر الشقاق ، واستمر مع كل ذلك محاولات عقيمة مستميتة أن يعود ما لا سبيل أن يعود.

وكانت هى تقلد نفسها فى أيام الصفاء فتمد يدها إلى جيبه بعد عاصفة من اللوم الجارح والملاحاة الموجعة كما كانت تمدها إلى جيبه بعد ساعات الرضا والدلال لتخرج منه المفكرة المعهودة وتكتب فيها أسطرا أو كلمات تسجل بها ما كان فى ذلك اليوم ، فكتبت يوما بعد مقابلة لم يسمع فيها إلا جدال ومحال أو سكوت هو أثقل من الجدال والمحال : نزهة رسمية فى عربة . ثم مناقشة جديدة . ثم مصافحة وتقبيل ، و لا عجب فى ذلك فإن الحب يسهر!

نعم يسهر من الأرق لا من العناية!

وسهر الحب إلى اليوم التالي فالتقيا وتراضيا وتناولت هي المفكرة وكتبت فيها :

"سامحت من غير سبب .. أحبك"

ولكنها كانت آخر ما كتبت في مفكرة ذلك العام وفيما بعده من أعوام.

ومن الناس من يستطيب أمثال هذه المقابلات ولو لم تكن إلا تمثيل ناجح و تمثيل فاشل وصاحبنا خليق أن يكون واحدا من هؤلاء الناي لو اقتصر الأمر على الفتور والتكلف والمناقشة والملال ، ولكن الشىء الذى لا يطاق هو أن تشك ثم لا تستطيع أن تصل إلى الحقيقة ، ولا أن تكشف عن الشك ولا أن تستقر عليه ، فإنها حالة لا يطاق لها دوام ولابد لها من انتهاء.

فكيف هذا الانتهاء؟

وأول ما اتفقا عليه أن يتفاهما على الفراق أسبوعا أو أسبوعين ريثما يعرفان كيف يكون صبرهما على هذا الفراق القصير، ويعرفان من ثم كيف يكون صبرهما على الفراق الحاسم الذى لا لقاء بعده ، فإن هان عليهما بعد هذه المحاولة أن ينفصلا بسلام فلينفصلا إذن بغير ندم ولا خصام ، وان عزت عليهما القطيعة فعسى أن يكون الاشتياق إلى اللقاء فاتحة الرغبة الصادقة من جديد، وعسى أن يفهم كلاهما من مكان صاحبه عندما ينهاه من مطاوعته الهواجس ومجاراة الشكوك.

ولما شيعها إلأى الباب وهو يقول إلى اللقاء في الغد / قالت : لا إن اللقاء بعد يومين أو ثلاثة أمتع وأشهى .. وسأخبرك أو تخبرني بالموعد متى طلبناه ولا نتفق عليه الآن .

واستحسن منها هذا التسويف كما كان يستحسن منها نشاطها في تعجيل المو واعيد وود في خلد لو يتأجل اللقاء خمسة أيام أو ستة لا يوما أو يومين ففي ذلك فطام للهوى وشحذ للشوق والرغبة وامتحان لقوى النفس يسبر غورها ويلذ فيها حب الاستطلاع.

إلا أنها محاولة قصيرة لم يكتب لها العمر المديد.

فما مهو إلا موعد أو موعدان حتى أحس كما يحس كل رجل يفهم طباع المرأة التي يهواها أنها لم تحافظ على وفائها ولم تعصم جسدها أيام الغياب ، وأنها أصبحت ترحب بالتسويف لأنها تريده وتستريح إليه .. ورجع إلى ذاكرته يفتش لعله يذكر هل هي اقترحت فى بادئ الأمر أن يعالج الشك بالتسويف والمباعدة بين المواعيد أو هو الذي بدأ بالاقتراح ، فتذكر أنها كانت تحوم حول الاقتراح وتوحيه إليه وتهتم بأن توقع في ذهنه أنه هو صاحبه وموحيه ... فقال لها متهكما:

أرى أن الحل الأخير الذى اهتدينا إليه يرضى أكثر من اثنين!

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : أعنى أنه ربما أرضى ثلاثة بدلا من اثنين ، وربما أربعة ... من يدرى

قالت متهكمة وربما خمسة وربما ستة .. زيادة خير .. ولماذا تكره الرضا لعباد الله.

وتلا ذلك هذه المحاورة من مناظر المسابقة في الإيلام والتبكيت والغضب والإغضاب ، قال فيه وقالت .. وتمادى وتمادت وباح فيه وباحت وخرجت من المنزل حانقة لا تسلم ولا تعد بلقاء مؤجل ولا بلقاء سريع .

وانقضت مدة لا يسمع منها ولا تسمع منه ولا يسعى إليها ولا تسعى إيه ونازعته أهواؤه مرات فى أثناء هذه المدة أن يراها وأن يتحدث إليها فنفر أشد نفور وكظم هذه الرغبة بجهد أليم . وبينما هو يحسب نفسه غاضبا نافرا إذا به يتحول رويدا إلى مشفق حزين ، واذا بإشفاقه الحزين أقرب إلى إشفاق الأبوة الرحيمة منه إلى إشفاق الغرام اللجوج ، واذا به فى ساعة من الساعات يكتب إليها هذا الخطاب:

أيتها الصديقة:

أيا كان رأيى فيك أو رأيك فى فلا ضير فى إرساله هذه الكلمة إليك ، ولا خسارة على أن ضاعت عندك أو صادفت نصيبا من الإصغاء ..إن مسحة من الألم ألمحها على وجهك تخيل إلى أننى أخاطب منك مستمعا، وأن موضعا حيا فى ضميرك لا يزال مفتوحا لهذا الخطاب.

لا حاجة إلى البحث فى تفاصيل حياتك القديم منها أو الجديد. فحسبى ما سمعته من لسانك ، وحسبى إنك تعترفين لى أنا بعلاقات ماضية مع أكثر من رجل واحد. وفي هذا كفاية وفوق اكفاية!

فلو قيل لى أننى سأسمع هذا الخبر من إنسان لما خطر لى قط أننى أسمعه منك أنت باختيارك . ولو جاز أن تبوحى به لكل أذن لكانت أذنى هى الأذن الوحيدة التى يجمل بك أن تكتمى السر منها، لأننى أنا الرجل الوحيد الذى يرى لك كرامة غير كرامة جسدك ويجب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة.

ومع هذا بأية بساطة كنت تتحدثين عن علاقاتك بالرجال وخلوتهم بك هنا وهناك .. ولكأنما كنت تفخرين . أو كأنما كنت تشفقين من كتمان هذا الحظ السعيد ..فيا صديقتى لشد ما ضلك الشقاء حتى جهلت ما تعرفه المرأة بالفطرة بغير حاجة إلى تعليم وتلقين ، وحتى نسيت أن المرأة تستطيع أن تكون لهذا ولذاك ولكنها لا تستطيع أن تفخر بشئ لم تعجز عنه امرأة بين النساء. فهل أصدق حقا أنك أنت تلك المرأة التى لم يبق لها إلا هذا الفخر المخجل الأليم ؟ وهل أنت حقا تلك المرأة التى تجد سعادتها فى هذا المجال!

أظن - وأرجو أن يكون ظنى صحيحا – إنك تخدعين نفسك يا صديقتى الخادعة المخدوعة . لست أنت التى تشعرين بالسعادة فى هذه العيشة الأسيفة . غيرك من النساء تنعم بها وتستطيبها ولكن شقاءك أنت بها لا يعدله شقاء.

انظري إلى وجهك فى المرآة . انظرى إلى ألم ضميرك الذى يبكيك كثيرا ولا ريب فى ساعات الوحدة والانفراد. ثم اسألي نفسك : ما نهاية كل هذا وما العاقبة وما المصير ؟ لو بقيت على هذه الحالة سنة واحدة لفقدت جمالك في عنفوان شبابك وفقدت كل ثقتك بنفسك بنفسك واحترامك لشعور الأنوثة الذي لا سعادة لامرأة بغيره . وماذا فى الحياة بعد فقد الثقة وفقد احترام الشعور . أنت في تلك الحالة بين اثنتين : إما أن تألفي العيشة التي تؤلمك الآن وهذا هو موت النفس الذي يموت به كل سرور صحيح.

وإما أن تتعذبي بها أبدا بغير عزاء يهون عليك فقد الصحة والنضارة ، وأنت إنما تفرين من العذاب وتطلبين الراحة و الاطمئنان.

أنت تتألمين ولكنك تجهلين ما يدفع عنك هذا الألم المخيف ... فاذكري نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التي كانت تساورك حين تحضرين إلى، واذكرى كيف كنا نفتتق وقد هدأت نفسك بعض الهدوء واستراح ضميرك بعض الراحة ... كان اهتمامي بك حتى بالغضب عليك يفرج شيئا من الضيق الذي يسد عليك منافذ الأمل ، لأنه فكرة عالية في نفسك ، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذى يسمم كل
شعور و ينغص كل نعيم.

اذكري كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهد قريب وكيف ظهر ذلك على ملامحك فسألتني في يوم من الأيام بين الجد والمزاح : أصحيح : أصحيح أن وجهي يمتلئ ويحلو ؟ كان ذلك وأنت تشعرين إلى جانبك بنفس إنسانية تحنو عليك وتفكر فيك وتجتهد في عذرك ما استطاعت ، وترعاك فى الغيبة والحضور، وهذا أحوج ما تحتاج إليه المرأة خاصة في هذه الحياة.

فكل امرأة – كل امرأة بلا استثناء – في وسعها أن تجد رجلا يأخذها جسداويطرحها سأما بعد حين بلا أسف ولا شكر ولا احترام.

ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التى تفهم الدنيا وتفهمها وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلا للرضا والغضب والشكر والملام..

أنت أم فاذكرى ذلك جيدا.

أنت فتاة ذكية متعلمة حساسة يقل بين الفتيات مثلك في هذه الصفات ، فلا تنسي عزتك التى تليق بك ولا تنزلي قدرك منزلا لا ترضاه لقدرها كل فتاة ، وأسألي نفسك مرة أخرى: هل وصلت امرأة إلى العاقبة المخيفة – إلى المرض والهوان – من غير هذه البداية ؟ وهل وصلت امرأة إلى تلك العاقبة وهى تظن أنها واصلة إليها أو أنها قريبة منها ؟ كلا ..!كلهن ياصديقتى يحسبن أن النهاية بعيدة وأن الاحتراس كاف للامان الدائم والنجاة من عاقبة غيرهن . والعاقبة واحدة على كل حال!

ولست أنت لسوء حظك كأولئك النساء اللوائى تحوطهن حمايات كثسرة وقرابات مشتبكة تستر العيوب وتضلل الشبهات.

فأنت فى حياة التجرد والانفراد عرضة لكل شيء وفريسة رخيصة لكل واش أثيم ، وكم جنى عليك حرمانك من أنس القرابة الشفيقة وحنان الأم الرؤوم ومعيشة الزوجية الهانئة ، فخسرت السعادة وأفسد عليك البأس عاطفة الرحمة والإخلاص

ولكن هل من الضروري لك أن تجنى أنت أيضا على نفسك بيديك فتسلبيها حتى سلوة الألم الشريف و إباء الحرمان العفيف ؟ وهل يبقى حرمان فوق حرمان المرأة التى لا تعرف السعادة ولا تعرف الألم الذى تحترمه هي ويحترمه الناس ؟

أنا لا أيأس على الرغم من كل شر.. بي من عطف عليك وعلم بحقيقة نفسك الضعيفة الطيبة وظروفك السيئة ما يمنعني أن أنظر إليك نظرة قاسية . وما تمنيت ولا أتمنى شيئا كما أتمنى أن أراك بعين الإعجاب والفخر والمحبة.

ولكني أقول لك وأنا آسف : أن فقدك لم يكن هينا ملى فى وقت من الأوقات كما هو هين علي الآن . فإذا كتبت إليك هذه الكلمة فإنما هي كلمة صديق يرح ضميره وواجب أخير لابد من أدائه ، واذا أبيت إلا أن تفهمي لها معنى من معاني الأنانية فافهمي إذن إنها كلمة إنسان يذكر برهة من حياته ويود أن يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة إلى آخر أيام الحياة.

والوداع ، والسلام.

لماذا كتب الخطاب ؟

إنه لم يستوضح نفسه سببا لكتابة ذلك الخطاب وهو يفكر في كتابته ، ولا استوضحها السبب وهو يكتبه ويسلمه إلى الرسول الذي تعود أن يسفر بينهما بالرسائل . ولكنه جلس بعد كتابته يسأل ويعجب : أي خاطر ذلك الخاطر الذي ورد على باله وهو يحسب أنه واصل إلى نتيجة ترضيه من كتابة هذه المواعظ ؟ أيظن أن خطابا كهذا قد يثوب بها إلى الوفاء والإخلاص إن كانت تخون وتخدع ؟ أيزعم ولو على سبيل الوهم البعيد أنها تتعظ وتندم لأنها تقرأ كلاما كهذا الكلام وتروئ النظر في مصير كذلك المصير ؟

آخر ما يطمع فيه العاقل أن يظفر بهذه النتيجة من امرأة يميل بها الهوى ويوسوس لها شيطان الخداع ! فكيف بصاحبتناالتي يعرفها حق عرفانها ويعرف أن الكلام لا يستحق عندها الهزء والتحدي بمزية أفضل من مزية الوعظ والتذكير .. إنها تريد أن تثور وتجمح ، ولا شيء أقمن من إثارة شهوة الثورة و الجماح من مخاطبة الإنسان بكلام يصدر من العقل ويلبس ثوب النصيحة والهداية ، وإن الرجل من رجال الدين يستحق عندها كل إكبار وتبجيل لأنه يخالف في حياته الخاصة ما يعظ به الناس في حياته العامة ، وقد خاضا في حديث بعض الأئمة النساك مرة فقال لها : لست على يقين أن مولانا هذا يحب السماء والآخرة لكني على يقين أنه يحب الأرض والدنيا .. ألا تعلمين ذلك قالت : أعلم كل العلم .. بل أعلم أنه يحب فلانة وفلانة وفلانة . غلطان أنت يا صديقي إن حسبت أنك تغض من مولانا بما اتهمته به ، إن خفاياه تلك هي التي تعجني منه وتكبره في نظري وتحملني على تقبيل يديه ، وإني ما سمعت عظاته يوما إلا استعظمت منه أنه قادر على مخالفتها .. ثم راحت تقول : –وكانت كلمة غلطان من لوازمها في الحديث – غلطان أنت يا صديقي إن حسبت أن المرأة تنقم على رجل الدين أنه يدع السماء من أجلها!

قال : وما رأيك في الراهبة التي تترك السماء من أجل رجل .؟ ألها عندك مثل هذا المكان من الإعجاب ؟

قالت : لإن الراهبات لا يعظن أحدا ، واللعبة تفقد كثيرا من بهجتها بهذا الدور البسيط الذي تمثله الراهبة الغاوية : وأعني به دور الوجه الواحد.

***

إذن ما أضيع الوعظ عند صاحبتنا التي لا تعجب من الوعاظ إلا بقدرتهم على الوعظ وقدرتهم بعد ذلك على نقض المواعظ .

نعم إنها تتذوق الكلام وتعطيه درجته العادلة من التقريظ والتأثر ، ولا يبعد أن تبكي إذا كان فيه ما يحرك الشجن ويستدر الدمع . ولكنها لا تزيد على ذلك ، ولن تخلط بين التقدير الفني والنتائج العملية ! ولو كانت في نوضع السلطان سليم الأول العثماني لبكت من قصيدة الشاعر الذي تشفع لديه بالشعر البليغ ليعفو عنه ثم أمرت كما أمر بسوقه إلى ساحة الموت عقيب إنشاده القصيدة لأن الفن شيء والسياسة شيء آخـــــر.

أم أن صاحبنا وليكن اسه همام وليكن اسمها منذ الآن (ســــــــارة (لتيسير الكلام عنهما

أم أن صاحبنا هماما قد ساقته الفتاة بعد الفراق القصير ولم يشأ أن يعترف بشوقه ولا أن يستدعيها إليه صراحة فعمد إلى كتابة الخطاب ليفتح باب الحديث فاللقاء ..؟!

لا ولا كل هذا.

إن هماما لم يكن من دأبه أن يقصر في مراجعة نياته ودسائس طبعه ولقد يغلو في ذلك حتى يعزو إلى نفسه من المقاصد ما ليس في حسبانه ، ولكنه غلا أو لم يغل لم يكن في وسعه أن يزعم أنه بحاجة إلى تلك الحيلة لتدبير اللقاء دون استدعاء فاللقاء لم يكن بالشيء العسير ، ولم يكن بينهما بعد من القطيعة ما يلجئ إلى الحيلة والمناورة . ولعل انتظاره الهداية من توجيه ذلك الخطاب أقرب إلى التصديق من التذرع به إلى تدبير لقاء.

السبب في الحقيقة أنه لا يبب هناك .

السبب هو الحيرة الملحاح التي تستحثنا إلى كل عمل مستطاع دون أن نستوضح أنفسنا عن علة معقولة أو نتيجة مأمولة وكل من حار هذه الحيرة يوما يذكر أنه فعل شيئا لا علة له وهو يقبل التعليل .

كذلك يفعل الأب الذي يرى بين يديع ولدا مريضا ميئوسا من شفائه وهو لا يستقر إلى التسليم وكذلك يفعل المحرج الذي يرى أن العمل واجب لأنه خير من سكون لا صبر له عليه ، وكذلك يفل الذي لابد أن يفعل لأنه بالفعل يستريح ، أما بالسكوم فلا راحة ولا أمل في الراحة.

وأتبع وصول الخطاب بحديث في التليفون .

لم يكن هذا الحديث بالمقصود ولكنه أيضا لم يكن بالمكروه ولا بالمرفوض .

وأتبع الحديث بموعد وزيارة .

وجاءت في الموعد وهي تبدو بتلك الطلعة التي يعهدها منها بعد كل مغاضبة وقبل كل مصالحة . طلعة السفير الذي يدخل المملكة الجديدة ولا يعلم أحرب أم سلام . فهو لا يبرز القوة ولكنه يتقى أن يبرز الضعف ، وهو لا يحمل غصن الزيتون لكنه مستعد به في الحقيقة المغلقة . ولا يتهجم ولكنه ينطلق ويتبسط فلم تتهيأ للموعد بزينتها التي تعلم أنها تروقه وتستجلب هواه ولكنها لم تهمل زينتها لأن المعرض قليل الاكتراث فهي زينة صالحة مع قليل من الاعتذار وإذا وصل الأمر إلى هذا فأي اعتذار لا يغني غناه ولو جاء عفو الساعة .

وكان من دأبها أن تختلس رضاه وتحطم الحواجز بينها وبينه بسلاح من سلاحين : بالدعابة والتهكم أو بالأسى و التضعضع ، فأما في هذه المرة فسلاح الأسى والتماس الشفقة لن يلائم مظهر السفارة التي تتردد بين الحرب والسلام ، فدخلت من الباب وهي تشهر سلاح التهكم والمناوشة والتفتت وهي داخلة كمن ضل الطريق وأفضى به السير إلى غير المكان المتوقع وهي بقبعتها :

من أكبر العجب أنني وصلت إلى هنا ولم أصل إلى المعبد!

قال همام في سره : ويحك ، هذه تحية وعظك ثم أجابها من نمط تحيتها قائلا :

مهبد ؟! استغفري الع يا أمة الله وهل تستطيع قدماك أن تحملاك إلى المعبد ولو قادك ألف دليل .

قال ولو تتريث :إنه لتقريظ حسن لبيتك أن يكون هو المكان الوحيد الذي تحملني إليه قدماي.
قال : وهل تحسبني أغتبط بهذا التقريظ ؟

قالت : معاذ الله ، ولاسيما وأنت بخطابك صاحب دعوى في الهداية والإرشاد لا تقل عن دعوى أهل الصناعة .. وع ذلك لا أظن أنك آسف لهذه الغلطة .

وبدات في نغمة الدلا بعدما انست من لغة الحوار أن الساعة ساعة غصن الزيتون لا ساعة السيف ثم دننت منه تقبله فقبلها وضمها وأجلسها وجلس إلى جوارها ، قال : لو أنها غلطة قدمين يا سارة ؟

قالت : غلطة قدمين أم يدين .. ألا تستطيع أن تتعلم الربوبية ساعة وتغفر الزلات ؟

وضحكت ضحكة حلوة خبيثة مسترسلة ليس فيها معنى إلا أنها تقول فيها أنا أعرف كيف أرضيك ؟ أليس كذلك ؟

فجاراها في الضحك وقال لها بلهجة المستظرف والعاشق معا : وهل أحرص عليك إلا لهذه الخذلقة ؟ متى علمت أن ربا من أرباب الأساطير غفر الزلات لشريكة قلبه !إنما يغفرون للمخلوقات التي تخون المخلوقات من أمثالها أما الخيانة العظمى هو الأرباب الذين يغفرونها . ؟

واطمأنت إلا مكانها وشعرت أنها في بيتها ، نعم في بيتها لا في سفارة تقبل عليها غريبة وتخرج منها مقبولة أو مريبة فوثبت من جانبه كما يثب الطائر بلا تنبيه ولا انتباه . إلى أين ؟ إلى الرشاش كعادتها في كل زيارة بلا اختلاف بين صبح ومساء وصيف وشتاء لأنها لا تميز الفصول إلا بالتقويم وجريدة الأزياء .

أفى هذه تريد التفريط يا همام وهى فى قبضة يديك ؟ لا يا صاح ! لست معك فى هذا ... إنما التفريط فيما يعوض ويستبدل فأما الذى لا عوض عنه ولا بديل له فإن احتمال الأذى فيه لخير من احتمال ضياعه واللهفة عليه.

وانه لفى هذه المناجاة إذا هى تتهاوى وتنفض شعرها كما تنفض الفرس الكريمة عرفها، واذا هى أمام المرأة مصقولة ندية كالثمرة الناضجة فى شعاع الفجر البليل ...وكالشيطان!

منذ الأزل وقفت هذه الفتنة إلى جانب ووقف إلى الجانب المقابل لها حكماء الأرض وهداتها ومشرعوها وأصحاب النظم والدساتير فيها، وقالت هذه الفتنة كلمتها وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا، ووعدت وأوعدت ووعدوا وأوعدوا . وأمامك الناس جميعا فاسأل واحدا واحدا : كم مرة سمعتهم هذه وكم مرة سمعتهم هؤلاء،
وأنا الضمين لك أن فى تاريخ كل إنسان مرة واحدة على الأقل سمع فيها لهذه الفتنة ولم يسمع معها لحكمة الحكماء ولا لشىء من الأشياء.

ليست هى المرأة المسموعة هنا ولكنها هى الطبيعة.

والمرأة والرجل والحكماء والحكمة ألعوبة الطبيعة التى لا تسأم اللعب ولا تعرف الجد لأنما لا تعرف التعب . وربما كانت المرأة أضعف فى هذه الألاعيب كما يكون الطعم أضعف من السمكة التى تاتأكله، وان كان الطعم ليقود السمكة إلى الهلاك.

ومن القاضى الفاصل بين الطبيعة والحكمة؟ إنما القضاء لمن ينتظر منهما الحة ألأيرة والنتيجة الخاتمة

ولكن ليس للطبيعة انتهاء

فهى في جميع الأزمان صاحبة القول الأخير.

في ملحمة الصراع بين الفتنة والحجى ينسى الإنسان مالا ينسى، ويخطر له الإغضاء عما يسهده بعينيه ويثبته ببرهانه ، ولقد خطر هذا لهمام فى تلك اللحظة ووسوس له الهوى أن ينزل بتلك المرأة الماثلة أمامه إلى حيث ينسى خيانتها ولا يذكر إلا متعتها. فتمنى فى تلك اللحظة أمنية غريبة : تمنى لو كان حبه لها أقل ، وماضيه معها أقصر، وشرطه عليها أقرب وأيسر. إذن لاكتفى منها بما تعطيه ، واستبقاها على شرطها ومرامها لا على. شرطه ومرامه.

إن الرجل الذى يهب للمرأة ساعة من يومه يكتفى منها بساعة من يومها .ولكن هل يكتفي منها بتلك الساعة وهو يهب لها ساعاته وأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره . ويحجب بيديه ضياء المستقبل الذى يطلع عليهما مفترفين كأنه يطمع من الدنيا فى غرام بغير فراق.

إن الابن لن يكون ابنا أو نصف ابن . وان التحفة النفيسة لن تكون صحيحة أو زائفة ، فهى إما صنعة الفنان المنسوبة إليه والفترة المردودة إليها أو هى ليست بصنعته على الإطلاق.

فلا تقريب ولا توسط فى هذه الأمور

وهذه المرأة ، بل هذا العالم الحاشد من النساء لأن كل لحظة من لحظاته معها تمده بنسخة منها قلما تختلط بأخواتها، هذه المرأة التى لا مرأة غيرها كيف يرضاها ولديها رجل غيره في إبان هواها ؟

ليست الحكمة هى التى تتكلم هنا ولكنها هى الطبيعة ، ومن ذا يقاوم الطبيعة فى غوايتها غير الطبيعة فى ثورتها ؟ إن الصراع هنا لبين ندين متكافئين ، والويل للفريسة المطرودة بين الندين.

لا ! سأحتفظ بهذه التحف وأصونها جهد ما فى وسعى من احتفاظ وصيانة ، ولكننى لن أحتفظ بها إلا تحفة نفيسة ... فإذا بعتها فلن أبيعها إلا وقد أيقنت أننى غير مغبون فيها ولا نادم عليها.

تحفة بين يدى لا شك فيها.

أقول حينا إنها تحفة نفيسة فليس فى كنوز الأرض ما يعدلها ويقوم بثمنها.

وأقول حينا إنها تحف زائفة فلو بعتها بدرهم لما كنت بخاسر.

وهذه هى الحيرة . فقولي يا حكمة الحكماء ويا هداية الهداة ، وقولوا لى يا صيارفة هذه الجواهر ويا دهاقين هذه المعادن ، ويا من يستطيعون أن يضعوا المنظار لحظة واحدة وراء هذه العين اللامعة فيلمحوا هنالك الفارق الهائل ، بين ما يباع بدرهم وما ليس يباع بكنوز الأرض وذخائر البحار.

لا ! لن أبيعها إلا بدرهم ، فإن كانت الأخرى فلا بيع ولا شراء.

لما غلا ثمنى عدمت المشترى
نعم وعدمت البائع أيضا...

هذه هى الحيرة فكيف الخروج منها ؟ لا حاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لتسويم هذه الجوهرة . فمن ذاك الذى تتاح له تلك النظرة ؟

كان همام فى تلك الأيام يقرأ رواية ((سيدة الأكاذيب)) للكاتب الفرنسى الكبير بول بورجيه ، ولعله قرأها لعنوانها وما يرجو أن يطلع عليه من أكاذيب سيدتها ... وفى الرواية امرأة لعوب من نساء الأسر المترفات ، وزوج متغافل وعاشق كهل يبذل المال والهدايا ،و عاشق ناشئ يبذل شبابه وجماله وطرافة هواه ، وكل من هؤلاء بنصيبه إلا العاشق الفتى الذى يتطس ويتوجس ويلح فى كشف الأسرار فيعمد إلى الرقابة ولا يلبث أن يخلص إلى النتيجة فما الرأى إذن فى الرقابة ؟

إن نظرة من رقيب أمين لتغنى من كل صيارفة الجواهر الذين يسومون معادن الوفاء .وليس لهم معيار واحد يبطل فيه الخلاف ... فإن لم يكن من الرقابة بد فلتكن فلتكن الرقابة ولكل شيء من جنسه آفة .

و أثلجت تلك الخاطرة صدر همام وان كانت قد غضت من سروره باللحظة التي هو فيها، ومن أين يخلص السرور و بينك وبينه رقيب ؟

تتابعت الخواطر عدوا دراكا فى رأس همام وهو يتأمل الفتنة الماثلة أمام المرآة ويتنامى شغفه بها كلما تمادى فى تفتيشها واستقصائها، ولم تستغرق كل هاتيك الخواطر منه إلا ريثما فرغت ((سارة)) من تسريح شعرها وتجفيف أهابها، لأنه كان يستعرض هاتيك الخواطر كما يستعرض صفحة مفتوحة بين يديه يحيط بها فى نظرة واحدة ، ولم تكن خواطره لتشغله عن كلمة من هنا وتعليق من هناك جوابا لما كانت تعابثه به من الملاحظات والمناوشات . غير أنها فطنت لما يجول فى خلده وأدركت أنه ليس معها بجميع قلبه ولسانه ، وأشفقت أن يستطرد ويستطرد فتتسع المسافة بينهما. فاستدارت إليه من المرآة متفترة متكسرة ، ومدت جيدها وثنت أعطافها وقالت : أرانى
متعبة أريد أن أذهب ... أو أريد أن أنام.

وانقضى اليوم بسلام ، ونسيا أو تناسيا خطاب)) الوعظ)) بعد ما كان من عبث التحية الأولى ونزلت سارة وهى مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف أو الرياء، ومن أدب المرأة إذا انتعشت حواسها أن تخف وتنشط ولا يثقل على ضميرهـــــا عبء من الأعباء وهذا الذى يلوح للرجل فى صورة البراءة

فينخدع ، أو هذا الذى يسمونه أحياناً بعمق المرأة وقدرتها على إجادة الرياء وإخفاء ما في الطوية إنما ، وانما هى فى خفتها كالطفل الذى تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولا تثقله الدخائل ، وقد ود همام لو يستطيع أن يخلط بين هذه الخفة وخفة البراة ، وما هو بمستطيع . فيرجع إلى الرقابة فهى مرجع الإنصاف ومقطع الخلاف ، وفيها وحدها تسويم لتلك المتعة بكنوز الأرض وذخائر البحار، أو بدرهم لا يندم عليه ملقيه فى التراب.

من هى ساره ؟

من هى الفتاة التى مشينا معها هذا الشوط ولا نعرفها، والتى رأينا منها خطوطت رلم نر منها صورة ، والتى قرأنا عنها كلمات كثيرة ولكنها كلمات بينها كثير من الفواصل ، وحر،فا كبيرة ولكنها حروف يعوزها كثير من الإعجام.

هى شيء يعرف ولا يعرف...

أنتكلم بلسان الصوفية ؟ كلا. بل بلسان العرف المقرر والمشاهدات اليومية ، فإن سارة بنت من بنات الواقع الحى الملموس ... وبنات الواقع هن اللواتى نعرفهن جيدا ولا نعرفهن جيدا ، ولو كانت من بنات الخيال لما بقى منها شيء مجهول.

ولميس بالنافع أن نصفها كما كان يراها همام فى أيام صفوه وهيامه ، أو نصفها كما كان يراها فى أيام نفوره واشمئزازه ، أو نصفها كما كان يراها وهو على القرب السائم ، أو كما كان يراها وهو على البعد مشوق ، ولكننا قد نصفها مزيجا من جميع هؤلاء فنخلص من وصفها إلى صورة تشبه سارة التى خلقها الله ، وتشبه سارة التى يذكرها همام بعد زوال الغاشية وانقضاء السنوات.

هى جميلة : جميلة لا مراء، ليست أجمل من رأى همام فى حياته ولا أجمل من رأى فى أيام فتنته وشغفه ، ولكنها جميلة جمالا يحتفظ بغيره فى ملامح النساء. فلو عمدت إلى ترتيب ألف امرأة هى منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة في مراتب الجمال المألوف ، ونحيت سارة عن الصف وحدها .. وان كنت لا تتكر ولا تبالى أن تتكر انها تأتى بعد مئات.

لونها كلون الشهد المصفى يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء و الصفراء فى مسحه واحده .

وعيناها نجلاوان ، وطفاوان ، يخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات : فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة.

وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد فى تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة فى لمحة الناظر .وبين وجهها النضير وجسمها الغضير جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقا لتمام الحسن من كليهما . فليمس هو جيدا كأى جيد. ولكنه الجيد الذى يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام.

يتخطاها من يراها على عجل ، ثم يعود مدركا أنه قد تخطى شيئا لا يفات ، فليست من الروعة بحيث تقسرك على التحديق إليها، وليست من سهولة المرأي بحيث يرسلك ناجيا فى سبيلك ... قوام بين هذا وذالك ، أو طراز أخر غير هذا وذاك.

لو تكفل بها مدير معهد من معاهد التجميل الحديث لخفف شيئا من قوامها الرادح بين الربعة والطويل ، قبل أن يبرزها فى معرض الرقص والرشاقة.

ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى أو عبد الحميد لما ضاره أن يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث ، قبل أن يزفها إلى الشاهنشاه.

حزمة من أعصاب تسمى امرأة

وهيهات أن تسمى شيئا غير امرأة

استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة . ولعلها أنثى ونصف أنثى ، لأنها أكثر من امرأة واحدة فى فضائل الجنس وعيوبه ، لا لأنها أضعف من امرأة واحدة.

و لقد يخيل إلى الإنسان في أحايين أن يتمم مخلوقا ببضعة من مخلوق ، وأن يسوى تكوينا بتكوين ، ويمزج عنصرا من الأبدان بعنصر، فامرأة يتممها رجل وأدمى يتممه حيوان ، وطلعة فتاة يتممها قوام فتى، وأبوة أخرى أن تنتقل إلى أمومة ، وأشباه ذلك من أخيلة المزج والتركيب.

أما هذه المخلوقة فلو انتقل عصب منها إلى تكوين ليث غضنفر لبقى عصب أنثى بين جميع ما حوله من ألواح و أمشاج و لو بقى ألف سنة.

ولو أنها تفرقت بين أجسام شتى لكانت فيها خميرة أنوثة يوشك أن تطغى على جميع تلك الأجسام .

شغلتها جواذب الجسد قبل أن تفقه معناها وتسمع باسمها ومسماها. فلما كانت بنية دارجة فى المدرسة ذهبت يوماً إلى كرسى الاعتراف تستغفر الكاهن عن مخالفة وصية من الوصايا العشر التى حفظتها، وتتوب من مقارفة الخطيئة التى دعوها فى المدرسة " ترفا " على سبيل الكناية ! فذعر الكاهن ولم يصدق ما يسمع.

واستعادها مرة بعد مرة وهى أخذة فى ذعر كذعر الكاهن من مس العدوى ورهبة الصوت ... ماذا ؟ فيما دون العاشرة وبين جدران مدرسة ليس فيها إلا البنات تزل بنية لم يكعب ثدياها وتقترف أم الخطايا التى

يقترفها النساء و الرجال ؟

وما سكنت بلابل الكاهن المذعور حتى بدا له من لهجتها أنها لا تفقه ما تقول وأنها تلهو بمحاكاة المعترفات لأنها أحبت أن تصنع مثل ما يصنعن ، وبحثت عما تعترف به فلم تجد غير هذه الخطيئة التى تجهلها. وقد نجت الخاطئة الصغيرة بعركة أذن وجيعة ، ثم ذهبت تسائل الزميلات وما هذا الذى ذعر منه الكاهن ذلك الذعر الشديد فلا تفوز بغير ضحكات وغمزات.

فال لها همام وهى تحكى له حكايتها:

لقد حسب لك اعترافك قبل اوانه ولئن اعترفت بالأمس وما أخطأت فلا أنت اليوم تخطئين وما تعترفين.

وعاشت بعد ذلك تنظر إلى خطايا الأديان نظرة المرأة الوثنية التي نشأت قبل أن ينشأ الانبياء. فهى ليست كالمتدينة التى خامرها الشك فى دينها، ولكنها كالمرأة التى لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين ، عن نزعة طبيعية فيها لا عن بحث ونقاش واطلاع ، ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسة إن لم يأكلها جهرة ، وآباؤه مع ذلك هم الملومون لأنهم منعوه ، وليس هو بالملوم لأنه اختلس مالا بد له من اختلاسه!

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولا كضجر المدمن يخدره العقار، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرح الجموح ، يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الإعياء والبكاء.

لها فراسة نفاذة فى كل ما بين الجنسين من علاقة ، لو حصلتها بالتعليم والتلقين لاستغرقت أعمارا إلى جانب عمرها فى القراءة . ولكنها تفطن لما فى نفس المرأة لأنها امرأة وتفطن لما فى نفس الرجل لأنها امرأة ، ويعينها ذكاء موصول بالفطرة وتعبير يتضح فى ذهنها وان لم يتضح بعض الأحيان على لسانها.

والحق أن هذه الفتاة كانت فى معرفتها بطبيعتها الأنثوية أعجوبة ، وكان همام يسمع منها ما قل أن تفهمه امرأة وان شعرت به . وقل أن تقوله وان فهمته ، وقل أن تحسن التعبير منه وان أرادت أن تقوله . إذ المعهود فى المرأة أنها تشعر ولا تفهم

شعورها، أو إنها تفهمه ولا تعمد إلى الصراحة فيه ، أو إنها تعمد إلى الصراحة ولكن لا تحسن التعبير. أما هذه الفتاة فعلم الأنوثة عندها كعلم الحساب عند بعض الأطفال الذين يجمعون ويضربون مشرات الأرقام بغير تدوين ولا مراجعة بداهة سهلة لا إجهاد فيها للفكر ولا اعتساف ولا تعليم!

في سهرة من سهرات الصور المتحركة شاهدا رواية من روايات الغرام بين بطلها أدولف منجو الممثل المشهور بتمثيل هذه الأدوار ٠أو المشهور بقدرته على غزو قلوب النساء الناضجات.

وكان منجو بغيضا إلى همام كما هو بغيض إلى كثير من النظارة فى دور العرض. فأراد همام أن يناوئ صاحبته وقال لها : أما إن إن النساء لسخيفات إن كان لمثل هذا الرجل هذه الحظوه عندهن.

فأجابته متحدية : ولم لا تكون له هذه الحظوة مند النساء . ألا تعجب المرأة إلا بفتى صبوح أو بفتى متين

الأركان ؟ هذا خطؤكم معشر الرجال . إن الفتيان الحسان الأشداء قد يفتنون المرأة ، وقد يخلبونها، وقد يهيجون نفسها ولكنهم لا يقربونها إليهم ولا إلى نفسها. إن أحدهم لينظر إليها كأنه غريب يمشى فى بلد غريب يخشى أن يتقدم أو يتأخر، متهيبا يعديها بالتهيب ، فتقوم بينهما الحواجز والسدود ولا يسهل التقريب بينهما بعد ذلك.

أو ينظر إليها نظرة القانص الفاتك فيربكها ويزعزع شعورها يوقع الهزيمة فى سريرتها.

أما الرجل الخبير بالنساء من أمثال أدولف منجو فإنه ينظر إليها بعد أن نظر إلى مئات من قبلها فإذا به يعرفها مكشوفة معراة من كل ستر ومن كل طلاء، واذا بها تحس كل الإحساس أنه يعرفها كما تعرف نفسها فى مخدعها وإذا هى قريبة منه لا تحتاج إلى تقريب ، بل قريبة منه بوحى لا تدركه ولا تلتفت إليه ، قريبة منه كما يكون الرجل و المرأة فى الخلود بعد عشرة أعوام.

والرجل الخبير بالنساء يشبع منهن فيزهد فيهن ولا يتهالك عليهن ، فإذا أحست المرأة بالفتور منه فى الطلب والمغازلة خشيت أن تكون هي المعيبة المجفوة فى نظره بالقياس إلى من عرف من النساء، ولم تتهمه فى ذوقه بل اتهمت نفسها في جمالها وجاذبيتها كما هو دأب المرأة من سوء الظن بنفسها أمام هؤلاء الرجال ، ونشأت عندها الرغبة فى اجتذابه واستطلاع رأيه ، واستسلمت له فى سهولة وطواعية ، لعلمها أن الحيلة معه لا تخفى عليه بعد ما سهد الكثير من حيل النساء.

هل بحثت سارة هذا المرضوع بحث الفلاسفة ، هل قرأته فى كتاب من كتب الصور المتحركة يجوز ! ولكن فطنتها وحسن روايتها لما قرأت لا تزالان عجيبتين بين شبيهاتها من الفتيات.

وتمييزها لملامح الرجولة ومظاهرها تمييز لا يخطئ لأنه أشبه بالغريزة التى لم تعرف غير الصواب لأنها لم تعرف غير صواب واحد. كصواب النحلة فى بناء الخلايا.

فالرجال الذين يشبهون النساء لا يستحقون منها حتى نظرة الزراية لأنها لا تشعر لهم بوجود، وما عدا هؤلاء من رجال فهم نماذج عدة تبلغ المئات ولكنهم مشمولون جميعا فى رجولة واحدة خلاصتها القوة والثقة والبروز، والطغيان القابل للرحمة والحنان ، و قبس من أريحية الخيال ، ونفحة من حماسة الروح تحسبان فى الزينة عرضا ولا تضمنان الرجحان فى الميزان.

ولهذا تضل بعض الطريق الذى تسلكه مع من تهواه ولو سلكته مرات في النهار، لأنها تليقي كل اعتمادها على صاحبها حتى لتكاد تنظر بعينيه وتمشى بقدميه ، وأبغض من تبغض – وهى قارئة حصيفة - أولئك النسوة الثائرات على الرجال المطالبات بما يسمينه حقوق الحرية ، فهى تقول انها لو سئلت أن تكون رجلا ما قبلت ، وأنها لو كانت تثور لثارت على الرجال لأنهم يستمعون إلى هذا الهراء.

ومن لوازمها التى لا تفارقها أنها ما حضرت قط رواية فيها نزاع بين رجل وامرأة وعاشق وعاشقة إلا كان عطفها فى جانب الرجل وان غدر وان خان ، ويشق عليها منظر العاشق المولە المغموم فتهتف من قلبها لا من لسانها وحده : ما من امرأة تستحق هذا العذاب ؟

تحب التدليل كما تحبه كل بنت من بنات حواء، ولكنها تكره التدليل السخى الفياض كما تكره التدليل المعسول الناصع الحلاوة ، وانما تحب أن يقطر لها التدليل تقطيرا وأن يشاب لها أبدا ببعض التوابل والأفاويه.

سألت صديقها وقد صفت واستسلمت لعطفه عليها:

أتحزن على إذا أنا مت ؟. !

فلو يدر كيف يجيبها، ولكنه قال : هذا سؤال سابق لأوانه يا بنيه ؟

قالت : ستبكى ولا شك . لا أسألك فى ذلك .. ولكن كم عبرة يا ترى تميزنى بها على من بكبتهم ؟

قال وهو لا يظهر المرح ولا يحاول أن يكتمه:

أراجع ما لدي من رصيد العبرات وأجيبك قبل الوقت المناسب بقليل! !

قالت : أنت لا تريح!

قال : ولكنى أراك مرتاحة .. أأنت تموتين ! ومن الذى يأذن لك أن تموتى!

وكانت مرتاحة حقا لما سمعت ، ولو أنه أسمعها غير ذلك من حسرات التفجع والتعوذ ومواعيد الحزن القاتل وعهود الوفاء الدائم لفترت وملت وانقلبت عليه ، ولكنه إذا ضمها وربت عليها وضن بعد ذلك بالكلام فقد وفاها من التدليل غاية مناها وضمن أن لا فسد عليه صفاء الساعة التى هى فيها.

وكان همام يمتحن معارفها الغرامية كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر مرة على أبعد تقدير، ويرشحها على أثر كل امتحان لوظيفة من الوظائف التى تؤهلها لها تلك المعارف الكثيرة ... إلا أنه استقر أخر الأمر على أنها أصلح ما تكون مديرة للإضاءة فى مسرح تمثيل.

لأنها تعلم مواقع الرؤية علما لا خطأ فيه ، وربما وقفت فى المكان المكشوف والنوافذ مطلة عليه من جوانب شتى، ثم لا تبالى أن تمازح صاحبها وتفريه بمزاحها فإذا أحجم وتردد ضحكت منه ساخرة ، وأولعت بتعييره والتهكم عليه ، لأنه لم يفهم لأول وهلة كما فهمت هى أن الأشعة المردودة عن زجاج النوافذ هناك تحجب النظر من ورائها!!

تعلمت وهامت بأوربا فأوربا عندها نبى معصوم : كل شى.فيها خير من كل شى فى غيرها، وهذه التى تغفل عن الأديان حتى يخيل إليك أنها لم تسمع قط بمكة وبيت المقدس وطور سيناء ، هذه الوثنية فى عالم الدين تراها فى عالم الأزياء فتعلم لأول وهلة أنها لا تغفل لحظة واحدة عن وحى باريس ومناسك الأزياء فى العالم الأوربى بأسره ، لأنها تتحرج من وضع شريط فى غير موضعه أو لبس زي فى غير
موعده تحرج الزاهد الصالح من ذنب ينفيه عن رحمة الله ويخلده فى جحيم عذابه.

وكان صاحبها همام على نقيضها يهزأ بالعرف وقد يتعمد الخروج عليه ولو فى المجامع العامة . لحق بها ليلة بدار الأوبرا وهو فى ملابسه الصباحية فكادت حين رأته إلى جانبها تجن من الغيظ وتتجاهل معرفتها به ومصاحبتها إياه ، وجعلت تنظر إليه نظرات فيها من الاستغراب والاستهوال والإكبار لهذه الجرأة أو لهذا التهور بمقدار ما فيها من الأسف والحنق والاستنكار ومالت إليه تقول : ماذا يظن هؤلاء الناس ؟ إنهم لن يقولوا إلا أن هذه الفتاة مسكينة مع هذا الرجل ! قال متظاهرا بالاعتذار وقد علم أن المعابثة أنفع أساليب الاعتذار معها فى هذه الحالة : لا عليك أيتها الفتاة المسكينة ، فى المرة التالية سأحمل فى يدى كسوة السهرة لأدفع عنك هذه المسبة ... إلا أنهما حين خرجا من الدار غلب عليها حب التحدى على الرغم من رغبتها فى التستر والمداراة ، فخرجت وهى أخذة بذراعه كأنما تغيظه هو أو تغيظ المتفرجين!

وتقرأ أوربا كما تعبد أزياءها ولكن ماذا تقرأ ؟ إن شئت فلا مانع من بيرون شوبنهور، على شريطة أن يوصيها بقراءتهما رجل يفهمها وتفهمه ، وأن تقرأ فى ديوان بيرون قصة دون جوان ، وأن تقرأ فى القصة أنباء خلاعته وعبثه بين مخادع الحوارى الحسان فى قصر السلطان ، أما شوبنهور فيجب أن يكون كله على وتيرة في الحب والشهوة بين الذكر والأنثى، وليتشاءم بعد ذلك ما استطاع! !

عاطفتها حية غير أنها مشغولة بشاغل واحد، فلا تهمها الشفقة على المظلومين والمنكوبين ولا تهمها المظالم والنكبات ، لا لأنها قاسية ولا لأنها مغلقة جاسية ، ولكن لأن مكان الشفقة مشغول مستغرق ، فلو خلا جانب منه برهة لما استعصى على الشفقة أن تنفذ إليه أو تطغى عليه.

وكأنها الطيارة المحلقة وكأن نزاواتها هى القوة الدافعة لها فى الفضاء فإذا دفعتها فهى ناهيك من حركة وصعود وهبوط ، وان وقفت لحظة فهى حجر ملقى على التراب ، ولسان حالها فى العواطف الإنسانية أن تقول لرجلها : إشفق أنت وتمرد على الظالم وأعن بما تشاء، وأنا وراءك حيث تقودك قدماك.

وهى وثنية فى مقايس الأخلاق كما هى وثنية فى التدين ، لا تؤمن بالعصمة لإنسانية فى أحد ولا فى صفة ، وشديدة الإيمان بضعف الإنسان مع أضعف المغريات .. استطرد الحديث يوما إلى جان دارك فقالت هازئة :
-كم رجلا ياترى عرف أنها عذراء! .

فقال لها همام_

إنها عذرا ء بشهادة ا لطب وشهادة الخواتين الموقرات.

فقالت : لقد شهد لها أضعاف هؤلاء بالمعجزات ، فهل تصدق معجزاتها ؟

وكان من دأبها أن تحب الغلبة فى المناقشة على طريقة كل أنثى مع تنوع الاسلوب والعبارة ، فإذا عز عليها الجواب زاغت منه وغيرت مجرى الحديث أو تقول : أسكتنى وما أقنعتنى ! وحينا أخر : ناقشنى يا أخى ناقشنى. ولكن بحق السماء والأرض عليك لا تكتفنى دع لى يا أخى حرية الكلام ! ! فهى تريد جوابا يروقها أو يترك لها باب الكلام مفتوحا بغير انتهاء..

فلما سألته : هل تصدق معجزاتها ؟ قال : نعم ... أصدق أنها صنعت المعجزات ، وجاءت بخوارق العادات ، ولكنها معجزات إنسانية لها أسباب إنسانية ، وان تضاربت فيها أقوال المفرسين من المؤمنين وغير المؤمنين .

ثم قال : والفرق بعيد مع هذا بين شاهد يقص ما تراه العين وشاهد يقص ما يخيله له الإيمان ... فشاهد العين مصدق ، وشاهد الإيمان لا يلزمنا تصديقه إلا إذا جاريناه فى إيمانه.

قالت : هذا قميص الكتاف يا أخى ! هذا قميص الكتاف!

ومن الصعب أن تفهم ما يرضيها إذا اتهمت أمامك أخلاق الناس جميعا وراحت تقدح فى دعاوى الصداقة والوفاء والفداء، فليس يرضيها أن تكون على رأيها لأنها تحب الرجل أريحيا ذا نخوة وحماسة وطموح إلى عظائم الآمال والرغائب ، وتصديق بالوفاء والفداء.

وليس يرضيها أن تناقضها وتضطرها إلى التسليم ، لأن الإكرا ه مكروه على كل حال.

ولكنها إذا كانت تجارى طبيعة المرأة فى حب الجدل والثرثرة والعناد فهى تجاري طبيعة المرأة أيضا فى إعجابها بطموح الرجل وصلابته وأحلامه.

وربما استراحت إلى الشعور بقوة عقله كما تستريح إلى الشعور بكل بأس فيه فما كان يدري همام مل يناقضها أو يجاريها فيما تقول ... وتلك حيرة يعالجها كل من عالج النساء.

قصت عليه مرة قصة صديق لزوجها أرسله إليها وسطاء الخير ليسفر فى الصلح بينها و بينه.

قالت : فهل تدرى ما صنع . إنه جاء يغازلنى وينفخ فى جمرة الغضب بينى وبن زوجى.

ثم قالت : ما أكذب الصداقة فى هذه الدنيا!

قال همام وقد أراد أن يعابثها ويسليها : إن صاحبنا لمعذور. وان الإغراء بالخيانة لعظيم .. فليت جميع الأصدقاء لا يخونون إلا بإغراء كهذا الإغراء.

ثم ضحك ضحكت ، وتماجنت فى الضحك وراحت تقول له : أراك ضننت على بقميص الكتاف اليوم . لا لا. إننى أريد اليوم قميص الكتاف ... قل . قل أليست كل صداقة فى هذه الدنيا لغرض هل يصادق الناس أحدا إلا لمال أو جمال أو سلطان أو نحو ذلك من الذرائع واللبانات.

قال همام : ومن لم يكن له مال ولا جمال ولا سلطان ولا مزية من المزايا فهل هو إنسان يستحق صداقة إنسان ؟

فوثبت وصفقت كما يصفق الطفل الأرعن قد ظفر بالأمنية الممنوعة ، وجعلت تقول : ها هو ذا قميص

الكتاف . ها أنت إذأ أخيرا يا بنى ! وأقبلت عليه تقبله وتناوشه ، وتبذل له ذخيرة من السرور كأنها فاكهة مترعة برحيقها ليس لها قشر ولا بذور.

وهى على ولعها بحديث الاكاذيب الشائعة فى أخلاق الناس وعودتها إليه آونة بعد أونة لم تنع ملى الناس أكاذيبهم قط بمرارة الناقم واستخفاف المتشائم ، وانما تتحدث بها كما تتحدث بصفحة من الطعام الشهى لم يتقنها الطاهى.. ولا حرج أن تمضى فى حديث انتقادها بعد ازدراءها.

فهى لهذا يصح أن تسمى وثنية فى تقويم مقاييس الأخلاق ولا يصح أن تسمى متشائمة أو ناقمة على الناس . أما مذهبها فى – الكرامة – فمذهب خليق أن يخيف من يحب لها الكرامة ، ويرد أن يأوى من كرامتها إلى حصن منيع على الطراق . وأحسن ما توصف به الكرامة على مذهبها أنها – كسوة اجتماعية – لا يخلعها المرء فى المجالس ولا يلبسها ممزقة أو مرقعة أو موصومة . فعيوب الكرامة وعيوب الكساء سواء فى هذا القياس!

إذا قيل أمامها إن فلانة أباحت نفسها لخادمها قالت – وهى تزعم المناقشة حبا للمناقشة : إن المرأة قد تهفو هذه الهفوة وهى لا تنظر إلى مثل ذلك الرجل . كما تنظر إلى حذاء. وليس كل رجل يصل إلى فراش المرأة يسودها. بل هو قد يكون خدامها في ذلك الفراش.

واذا قيل لها إن فلانا ضرب حبيبته قالت : وهل ضربها إلا لأنه يحبها . إن المرء ليضرب نفسه فى الحائط إذا بلغ به الغيظ ذلك المبلغ، لو كان ضرب النفس يشفى غلة المغيظ!

واذا قيل لها إن امرأة فى التاريخ أو قيد الحياة تهالكت على اللذات قالت إن المرأة لا تتهالك على اللذات إلا أن تفقد الرجل الذى يفوق اللذة فى رومها. فتحب الرجل لأجل اللذة بدلا من أن تحب اللذة لأجل الرجل الذى تهواه وتستكين إليه . وما نفرت قط من مذمة خبيثة عن مبدأ وعقيدة و انما تنفر من جميع الأشياء التي تأباها كما ينفر المرء من طعام يعافه : فهى مسألة ذوق ورغبة وليست مسألة شرف واعتقاد.

ومثل هذه الكرامة لن تعصم صاحبها إن يقارف أخبث المنكرات كلما حلت له وغفلت عنه عين الرقيب.

ويحار طبيب الأخلاق كما يحار طبيب الأبدان فى إيواء هذا المزاج إلى مأواه من الصحة والداء. أفمن كانت كذلك فى نزعاتها وخلجاتها أتكون فى رأى الطب امرأة سليمة مستقيمة على سواء الطبيعة ؟ إن الإغراق يستلزم الزيغ والاختلال فى التركيب .. ولكن أى اختلال عسى أن يكون فى تركيب الجسم الذى يندمل جرحه بعد يوم ويقضى النهار والليل فى صبارة الشتاء بلباس الصيف ولا يدرى ما الزكام ؟ كل اختلال يجاوز هذه المدينة هو اختلال عجيب الجوار عميق القرار.

أكبر الظن أن الفتاة على ما بها من جموح وشطط كانت وشيكة أن تستقيم وتتزن لو رزقت زوجا يوائم شوقها إلى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية . ولكنها خابت فى الزواج فشقيت ولجت بها الشقاوة حين كفرت بصداقة الصديقات ومؤاساة الشقيقات ، فعاشت فى عالم قد أقفر من جنس حواء إلا أن تكون منافسة مريبة أو عاذلة رقيبة ، ولم يبق فيه إلا رجال!

وجوه

ذو الوجهين منافق ، وذو الوجه الواحد ميت!

يعيب الإنسان أن يصنع له نفسا غير نفسه ووجها غير وجهه ، وأن يبدو للناس بوجهين يلعن أحدهما الأخر. ويعلم هو أنهما – كليهما – ملعونان.

ولا يعيبه أن يكون له مائة وجه ينم كل منها على سمة من سماته ومعنى من معانيه ، ويعرض لنا من ذهنه وسليقته وقلبه فى ساعة ما ليس يعرضه فى ساعة أخرى. لأن كل وجه من هذه الوجوه حق وليس بكذب ، وجوهر وليس بطلاء، وصفحة من كتاب لا تتم قراءته إلا باستعراض جميع الصفحات.

ذو الوجهين فى كل وجه من وجهيه كذب وطلاء.

وذو الوجوه المنوعة السمات . المعددة الملامح . المفرقة المعانى، رواية صادق الخبر يرينا كل يوم بينة جديدة على صدقه ولونا جديدا من تمامه ونقصه ، ونفسا جديدة فى تعبير جديد.

والرجل الذى لا تختلف له صورة من صورة ولا تمثال من تمثال هو جماد بختلس عنوان الحياه.

والوجه الذى يصوره مائة مصور فيخرجون جميعا بطابع واحد لا يتبدل هو جدار فى هيئة إنسان ، ولكنه جدار لا تختلف عليه الظلال والألوان.

لنابليون بونابرت مئات من الصور الشمسية والزيتية ، ولا نذكر إلا صورة واحدة منها تقول لنا حين نبصرها لأول وهلة : هذا وجه إيطالى لا مراء ..! فلو أننا نعلم أن نابليون إيطالى من شعب إيطالية لقلنا إن الصورة كاذبة أو أن فراستنا هى التى كذبتنا ما رأيناه ، ولكننا نعلم أنه إيطالى من شعب إيطالية فالصورة إذن أصدق من جميع الصور التى خفيت فيها ملامحه الإيطالية ولم تبرز لنا هذا البروز.

وجمال الدين الأفغانى يختلف المترجمون فيه هل هو من الفرس أو من الأفغان . .لكن صورة من صوره التى ترتسم فيها عيناه القلقتان الوامضتان وصدغاه الناتئان و شفتاه العصبيتان تفض الجدال وتقول فيه أصدق مقال : إن هذا الوجه لأفغانى ولو ولد فى البلاد الفارسية ، وانه لأفغانى ولو نماه إليهم قوم من الفرس ، ونفاه منهم قوم من الأفغان.

وليس منا إلا من يعرف صاحبا يحاول أن يخفى بعض مثالبه أو بعض سيئاته ثم يلتقطه المصور التقاطا فإذا هو حاسر الطبيعة بغير نقاب ، على كره منه وعلى كره من المصور. ولعله هو نفسه يرى الصورة فلا يفطن لما كشفت من أمره ، لأنه يفهم إفشاء الكلام ولا يفهم إفشاء السمات والقسمات.

وليس من اللازم اللازب أن يطول الزمن بين الصورتين المخلفتين للوجه الواحد، فإنى لأذكر أنى رأيت صورا ثلاثا لطفل واحد فى السنة الأولى من عمره أخذت فى ساعة واحدة فى مكان واحد تذكارا ليوم ميلاده

: ترى إحداها فلا تملك أن تقول : ما أشبه هذا الطفل بأبيه ، وترى الثانية فلا تملك أن تقول ما أشبه هذا الطفل بأمه ، وترى الثالثة فتستطيع أن تقول إنه ليشبه أمه كما تستطيع أن تقول إنه ليشبه أباه.

ويصدق هذا على كبار السن كما يصدق على صغارها. فلا يندر أن يلتفت الإنسان التفاتة خاطفة على غير قصد منه أمام المرآة فيلوح له شبه من عمومته أو شبه من خؤولته لم يكن قبل ذلك يلمحه فى صفحة وجهه ، وقد تتصرم السنون ولا يلمحه مرة أخرى إلا فى مثل تلك اللفتة الخاطفة.

وأعرف أبا مشهورا له خمسة من الأبناء الذكور يجلس كل منهم إلى جانبه فلا

تخفى المشابهة بينهما أقل خفاء، ولا يحتاج الناظر إلى فراسة ثاقبة ليعلم من فوره أنهما ابن وأبوه ثم يجتمع الإخوة الخمسة فلا يبدو بينهم هذا التشابه إلا بفراسة المتأمل لتقارب الأصل وفروعه وتباعد الفروع متفرقات .

ومما لا ريب فيه أن سمات الأخلاق والأفهام شيء يستكن فى النفس قبل أن يبدو على أسارير الرجوه ، وأنها شيء لا يزول من النفس وان زال أثره الظاهر فى بعض الأحيان ، وأنه على قدر معانى النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه ، وعلى قدر تعدد الوجوه يكون الأنس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط إلى اللقاء.

وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللوائى لا يطالعك بمنظر واحد فى محضرين متواليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئتين فى دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة ولا رياء، وتراها بعد حين ~ وقد تراها فى يومها فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها فى مراس كيد النساء ودهاء الرجال .

وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغير الشهوات ، وضحكة أخرى- وقد تكون على أثر الأولى ~ فذاك عقل يضحك ولب يسخر، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين.

هى تارة أم رؤوم تفيض بحنان الأمهات حتى ليوشك أن تسع به أطفال العالمين ، وحسبك أن ترسمها هكذا ولا تضع فى أحضانها طفلا يرضع ولا إلى حانبها طفلا يدرج ، لتستحق الصورة عنوان الأمومة.

لها صورة إلى جانب سرير لو نحيت عنها السرير جانبا لمثلت لك راهبة خاشعة تهم بالصلاة ، أو ضحية من ضحايا الألهة تساق إلى محراب القربان.

ولها صورة على سفح الهرم لو أخفيت منها الهرم لخلتها حورية مخمورة من أرض اليونلن القديمة تهم بالرقص في كروم باخوس.
وكان همام يراقب هذه الشخوص ويتصفح هذه الوجوه و هو مغتبط تارة ومشفق تارة أخرى و يعزو تقلبها واطرادها إلى الفتوة الحية التى لم تحبس فى محابس الأفكار والعادات والتقاليد، فهى أبدا فى أيدى العواطف والنوازع كعجينة الخلق المهيأة للصوغ والتركيب فى كل ساعة.

وخطر له أن ينشئ حولها رواية مسرحية هى جميع أبطالها وهى البطل الوحيد فيها. تدور محاوراتها على المثال الآتى:

سارة : إنى لا أرضى أن أصاحبك فى الطريق وأنت فى هذه الثياب الفاضحة.

سارة : وهل تحسبين أننى أسر بمصاحبتك وأنت بهذه السحنة العابسة وهذه المسوح المحزنة وهذا الزى الذى يشبه زى الحداد.

سارة : على رسلكما أيتها الصديقتان ، لا تتخاصما ولا تشرعا فى تمزيق ما عليكما من ثياب . إنها تستركما على كل حال ، وأنتما ضيفتاى غدا ... فهل تحضران إلى وليمتى وقد شحذت كل منكما أظافرها لصاحبتها ؟ لا عليكما من المصاحبة فى الطريق .. احضرا من طريقين مختلفين ولتكن كل منكما فى الثياب التى تروقها، فأنتما تعلمان إننى أحبكما، ولا أنكر منك يا سارة شفوف الخلاعة ، ولا منك يا سارة مسوح الرهبان.

سارة : وهل عندك وليمة غدا ؟ من دعوت إليها غيرنا من السيدات.

سارة: دعوت سارة و...

سارة : سارة ! أخشى أن تكون تلك الفتاة التي

لا تتحدث أبدأ إلا عن زينتها وجواهرها وحلاقها ومواشطها.

سارة : لا بل هى سارة التى لا تتحدث أبدأ إلا عن وليدها.

سارة : هأنذا قد حضرت فى غير الموعد الملائم على ما يظهر وآسف لأني قطعت عنكن لذة الاغتياب فالغيبة لذيذو ولا سيما غيبة الصديقات! .

سارة : لم نقل عنك شيئا ، وإنما أردنا تعريفك فقلنا إنها سارة التي تحب ولدها العزيز ولا تفتأ تتحدث عنه .

سارة : وأى عجب فى ذلك . ألا تحب الأم وليدها ؟ وهل للمرأة فخر أشرف وأشهى من الأمومة ؟

سارة : أأخطأت يا صديقتى . إن فخر المرأة جمالها.

سارة : بل فخر المرأة ذكاؤها.

سارة : بل فخر المرأة من تحبه ويحبها .. ويحي ويحي.. !

لقد كانت المشاجرة بين اثنتين فمازلنا حتى جعلناها بين أربع.

سارة : وان شئتن فلتكن بين خمس .. علام تختلفن . ألا تسمحن لى بنصيب
هذا الخلاف ؟

سارة : أهلاً بك سارة ...! أخشى أن لا تكون لك فرصة باقية لخلاف.

لقد استنفدنا جميع الفرص بين قائلة إن فخر المرأة أمومتها وقائلة إن فخر المرأة جمالها وقائلة بل فخرها ذكاؤها، وقائلة لا هذا ولا ذاك ولا ذلك . بل فخرها حبها وغرامها.. فماذا أنت قائلة بعد ما قيل . لقد ضيعت الفرصة يا مسكينة.

سارة : كلا يا صحبتى ! لا تتعجلي بالرثاء لحالى. فقد نسيتن فخرا للمرأة لا ينقطع عن الأمومة ولا الذكاء ولا الجمال ولا الغرام . ولا أدري كيف نسيته هذا النسيان ؟ فخر المرأة عذابها يا أخوات.

ساره : صدقت ياصديقة!

سارة : ماذا تقولين صدقت ؟ ياللعار. هذا كلام العجائز، هذا حديث خرافة . هذا مذهب عتيق أقدم من حواء والحية . إنما خلقنا للسرور نأخذه ونعطيه . فمن نذر المرأة للعذاب لا أصاب فى الدنيا غير العذاب.

سارة : ليسقط التمرد.

ساره : ليحيا التمرد.

***

ثم ينقاربن وبتلاحمن ، وبتسربن كلهن فى شخص واحد، يبقى على المسرح فى

ثياب الشرطة ! ويصيح : أين المشاجرة وأين المتشاجرات..

***

وقد تلا همام على سارة هذا الفصيل الصغير فاستملحت الفكرة وصفقت لها

قال همام : كفاية . لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية.

ولم تكن هى فى بادئ الأمر تفطن لهذا الذى يلاحظه همام من غرائب شخصها وطرائف ملامحها : إنما كانت تعرف كيف تبدى بضاضتها فى الثياب البيضاء، وكيف تخيل لك النحافة فى الثياب الدكناء أو السوداء، وكيف تصفف طرتها بما يظهر من وجهها سمات الطفولة ، وكيف تصففها بما يكشف منها جانب الذكاء
ويزين القسمات بإشراف جبينها الوضاء، وتلكك صناعة تحذقها كل امرأة تلتفت إلى محاسنها وتسمع رأى الرجال والنساء فيما يعجبهم من مرأها. لكنها لم تكن تلتفت إلى ما وراء ذلك من تقلب المعانى وتعدد الشخوص.

فإنهما لفى يوم رائق صاف جميل الأصيل وهمام يتأمل وجهها الذى تبدل الأشعة والظلال من معانيه كل لحظة ، وتبدل العواطف والخلجات من ملامحه كل فترة ، إذا به يهتف فجأة بكلمات لا مقدمة لها ولا سابقة لتفسيرها.

كم لك من وجوه يا ساره.

فانتفضت فى ذراعه ، وحسبت أنه مقدمة لاتهام وملاحاة وهما يستمرئان نعيم ذلك اليوم الرائق الصافى الجميل ، وقالت:

ماذا تعنى ؟

قال : هدئى من روعك . إنما ثناء أردت لا ملامة ، وأخذ يشرح لها ما يعنيه كأنه يحدثها عن امرأة غائبة أو عن شخص من شخوص الروايات ، وهى تصغى إليه مسبوتة ، ثم مسترحية ، ثم مبتسمة ، ثم طروبا متهللة ، وهو يرى فيما يرى مصداق ما يلاحظه عليها ويحدثها عنه ، حتى كان ختام الحديث اقتراب الشفاه بداهة وطواعية .. ثم نكتة من نكاتها التى لا تخذلها فى أمثال هذه المواقف ، ألقتها إليه وهى تتناءى عنه مرحة ضاحكة:

إحمد ربك . عندك من سارة المظلومة حريم كامل ، فلا تشكر نفسك كثيرا

ترتيب الحوادث أن تنتهى ثم نكر راجعين للسؤال من بدايتها . وسبيل التواريخ أن تنطوى السير وتتصرم الدول ثم نتقصى مناقشتها وأسباب ظهورها.

نحن لا نحيد عن مجرى الزمان حين نعرف الساعة كيف تلاقت سارة وهمام ، بعد أن عرفنا منذ برهة كيف كانت القطيعة وكيف كان اللقاء الأخير.

لم يقصد همام أن يلتقى بسارة ولم تقصد سارة أن تلتقى بهمام ... وانما جاء اللقاء كما تجيء معظم الحوادث الكبرى فى معظم التواريخ والسير : من زواج وفراق ورحلة واختيار مساع واقتحام غيوب ، مصادفة لا يسبقها عمد، وعرضا لا يمهد له بتفكير.

خرج همام يتمشى فى الخلاء ضحوة من ضحوات الخريف التى تبتهج فيها الشمس فى هدوء، ويرقص فيها الهواء فى حنين ، ويرق فيها الجو فى تشوف وارتقاب وتطرح فيها النفس أعباءها كما تطرح القافلة أحمالها عند مشارفة الواحة المبشرة بالماء الغزير والظل الظليل : ريثما تنهض بالعبء من جديد.

ماذا عسى أن يكون العبء المنظور ؟

لا تقول الشمس ، ولا يجيب الهواء، ولا يشف عنه الجو. ولا تحفل النفس ما يكون حتى يكون .. إن كان ويعود همام من رحلته وقد علق جميع همومه وأجل جميع نياته وأصبح جزءا من الشمس والهواء والجو، ولم يعد جزءا من عالم الإنسان

وألفى نفسه وهو عائد إلى منزله على مقربة من منزل الأستاذ زاهر وهو رجل ظريف طيب النحيرة من أولائك الذين يرضون فيسلون ويطربون ويسخطون فيكونون أدنى إلى التسلية والطرب لطرافة ما يرتجله في ذهه الحالة من مفارقات اللذع والتنديد.

وكان يومئذ يسكن فى بيت من بيوت الحجرات المفروشة تديره خائطة فرنسية ليكن اسمها –ماريانا– ... فدلف همام إلى المنزل يزور صاحبه ويقضى معه فترة يقفزان فيها بين معارض الحديث التى لا وصلة بينهما، ويضحكان ضحكا كثيرا، إن لم تكن فيه فكاهة عالية ففيه ولا شك تمرين نافع للرئتين . ووجد – ماريانا– فى فناء الدار تطعم الديكة الرومية التى عندها صفحة من المكرونة البائتة ، وعندها فتاة مليحة يصعب تقدير سنها، لأنها تصلح للعشرين كما تصلح للخامسة والعشرين ، وتسمى آنسة ، كما تسمى سيدة ، وهى مشغولة بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه.

قال همام : أسعد الله الصباح . اين زاهر يا مدام ؟

فردت التحية بمثلها وقالت : أولا نراك إلا زائرا لزاهر إنه خرج منذ هنيهة وسيعود بعد بقليل .

والتفت همام إلى صفحة المكرونة قائلا : أرى اليكة اليوم إيطالية وليست رومية!

فلم تجب ماريانا بغير ابتسامة عريضة ، و انما أجابت الفتاة قائلة : إن كان الجنس بالطعام فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الأجناس :مصرية إن أكلت الفول المدمس ، وانجليزية إن أكلت البطاطس ، وهندية إن صبرت على الصيام الطويل.

فنظرت إليها ماريانا نظرة العاتب المصطنع ، واستظرف همام جوابها واستغرب مشاركتها فى الحديث فى وقت واحد، ورحب مع ذلك بهذه المشاركة التي أحس لتوها أنها وافقت هواه وأنه كان يسوق الحديث إليها وان أبطأ المساق.

قال همام : إن الآنسة تعرف كل شيء عن ديكة البيت وتذبذبها فى الوطنية ولكني. لا أذكر أننى رأتها هنا يا آنسة قبل الآن.

ماذا يقول ؟ أيقول لا أذكر أننى رأيتك ؟ أكان من الجائز إذن أن يراها ويهملها وينسى أنه رأها ؟

أحس همام أيضا أن الكلمة لم توافق هواها، وسمعها تجيب بشيء من الامتعاض المكتوم كأنها تخاطب نفسها :

ولماذا تدعونى يا أنسة ! أتستصغرنى ؟ إننى ربة بيت ، وأم!

ياللمرأة ! أتريد أن يفهم أنها غضبت لأنه دعاها يا آنسة ؟ لا والله ! لقد كان بريق الرضا بهذه التسمية يومض فى عينيها ... إنما عز عليها أنه جعلها شيئا مهملا يجوز أن يراه مرة أو مرات ثم ينساه ، فأسفرت عن الغضب وسترت السبب ، وتوارت وراء حجاب المجاملات والألقاب.

فأحب ان يغيظها قليلا وعاد يقول : ولكن السيدات يا آنسة .. يلبسن فى أصابعهن علامة تسمى خاتم الزواج . فأين هذه العلامة ؟

قالت : لذلك شرح يطول

قال : عسى أن أسمعه فى وقت قريب

ثم اقتضب الحديث والتفت إلى شيخ متهدم يعبر الفناء . فسأل الخائطة . أهذا

ضيف جديد عندك يا مدام ؟

فزمت شفتيها لا يدرى أهى مشمئزة من الرجل أم راثية لحاله ، وقالت : ضيف ولكن لا أظنه طويل المقام . ألا تراه يتعثر بقدميه ؟ وفي أقل من دقائق لا تتجاوز الخمس عرف همام والفتاة كل ما تعرفه ´´ماريانا´´ عن الرجل وعاداته وأطواره ، وثروته التى تربى على الألوف ، ولا وارث له ولا قريب ولا قريبة تلوذ به فى شيخوخته الكئيبة

قال همام : وما حاجته إلى البحث من وارث ؟ إن الورثة يبحثون عنه ولا يقصرون عند اللزوم

قالت : ألا يحتاج إلى من يعوله ويواسيه ويحف به وهو يودع دنياه ؟

قال همام : إن كنت يا مريانا حريصة على خروجه من حجراتك فانصحى له بكتابة إعلان فى الصحف السيارة ، يقول فيه إنه يملك كذا من الألوف يحتاج إلى كذا من الإخوان وأولاد الأعمام وأولاد الأخوال ، وانظرى كيف يضيق بيتك عن الطالبين والطالبات ممن آنسوا فى نفوسهم الوفاء بالشروط.

فنسيت الفتاة غضبتها الصغيرة واندفعت ضاحكة ، ومازالت حتى أجبرت هماما - وهو فى غنى عن الإجبار – أن يحول الحديث إليها. فسألها قائلا:

وأنت ياسيدة . نعم أنت ياسيدة في هذه المرة لأية قرابة ترشحين نفسك إذا أعلن الرجل إعلانه ؟

فهزت رأسها تفكر. ثم قالت : أوفرها نصيبا فى الميراث ؟

قال : لا تكونين إذن إلا زوجة.

قالت ما معناه : فأل الله ولا فألك . أى غرام غرامك هذا بذكر الزواج والزوجات والأزواج ؟ ثم رفعت رأسها متأففة كأنها تطوي حديثا لا تحب أن يجرى لها على لسان ٠وهى فى الواقع تود لو أفرغت كل ما فى جعبتها من ذلك الحديث أول ما تسعف المناسبة وتبدر من همام بادرة إغراء.

قال همام : لا تؤاخذينى إن ذكرت الزواج مرة أو مرتين فإني لم أتزوج قط ولا خبرة لى بهذا الجانب من مزعجات الدنيا...

قالت : اصحيح ؟ لقد أراحك الله .. فبأي جانب من مزعجات الدنيا أنت خبير فأسرع همام قائلا ..لذلك شرح يطول.

قالت . يا لك من منتقم . على أنك تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان فإني لا أكلفك عناء الشرح ولا أستطلع دخائل شأنك .. لست فضولية بحمد الله.

قال : وإذا كنت أنا فضوليا ؟

قالت : إذن يختلف الأمر .

قال : كيف يتختلف .

قالت : يلوح لي انك كما وصفت نفسك فضولي ولا فخر .

قال : ليس مع كل الناس

قالت : تحيات وغزل .. وعما قريب : عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك إلى آخر هذا الموال المحفوظ.

قال : ولماذا عما فريب . الآن!

قالت : انت عجول ..وأنت جريء ايضا.

قال : إن وعدتني أن أجني للصبر ثمرة فأنا أصبر من ايوب قوليها كلمة واحدة وأنا لا أتعجلك في شيء .. وأنصرف الآن .

قالت : وصاحبك الذي تسأل عنه ؟

قال : ها .. يلوح لي أنني أعجبتك ! وأنك تستبقيني!

قالت : لولا أنك تمزح لقلت أنك مغرور غروركم معشر الرجال .. لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يخسبها مجنونة بهواه.

قال : أو يحسب أنه مجنون بهواها .

قالت : طيب والله لقد قطعنا شوطا بعيدا جدا في نصف ساعة ولا أدري ما خطب ماريانا سامحها الله ؟ اين ذهبت وتركتنا ؟ العلك على اتفاق معها أن تهيء هذا اللقاء ؟ ما من عجب فهكذا تصنع الخائطات فيما يقال .

وسمعت ماريانا اسمها فعادت مهرولة وتتساءل ماذا تقولين عني يا سارة ..

قال همام : إنها تتهمك بانك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاجة .

قالت ماريانا : أنا أعلم على الأقل أن الدجاج لا تحتاج إلى من يدبر لها الخلوة مع الديكة!

قالت الفتاة قالتك الله يا عجوز السوء لماذا تنصلين نفسك من النهمة . أما كان الأولى أن تتمهلي لمحة لعلي كنت أنوي أن أشكرك على ما صنعت . ؟

فطاش الفرح بهمام وأوشك قلب أن يفلت من نياطه وانتشى نشوة خمسين كاسا في رشفة واحدة وقال وهو يهجم على ماريانا بل دعي لي أنا أن اشكرها إنني أقبل وجنتيها وصنع ما يقوله قبل أن تفيق ماريانا من دهشتها ومال إلى الفتاة قبل أن تدري ما هو صانع قائلا واقبلك انت أيضا إكراما .. لماريانا .. وقبلها .

ثم جلس مأخوذا بما حذث يتوقع ماذا تكون الكلمة الأولى التي تنطق بها الفتاة : اتشتم ؟ أتصطنع الغضب ؟ أتنطلق من المنزل ؟

وكأنما كان التوقع شغله الشاغل في حينها دون ما يتبعه من ثورة أو مسامحة فاستطال الأمد وما انقضت غير ثوان في توقع ما يكون وزاده فرح على فرح أم شيئا مما توقعها لم يحدث وأن كل ما حدث أن الفتاة بهتت وراحت تقول بصوت خافت : لقد آذاني شاربك الطويـــــل!!
تم التعارف بالأسماء.
واسترسل الحديث أصداء لا يقصدها القائل ولا يصغي إليها المستمع ، لحظة يسيرة ثم انقلب الفرح غما ثقيلا بغير منقذ وبغير دلالة فإن الفتاة لبثت تتكلم ويبدو من عينيها أنها تفكر في غير ما تتكام ثم خرجت ساهمة بغير استئذان إلا حين قاربت الباب فقد انثنت تحيي هماما تحية من يؤدي واجب اللياقة لا تحية من يجامل في وداع .

قال همام : ما معنى هذا ؟

قالت ماريانا : لا عليك منها إنها ستعود يوما لا محالة.

قال : لست عن هذا أسأل ؟ فهل هي غاضبة.

قالت : مم تغضب . أمن القبلة . فلم لم أغضب أنا ؟

قال : خيبة الله عليك يا عزيزتى ماريانا ... دعينا من غضبك أنت ورضاك ،، فإنها هى القبلة الأولى والأخيرة بغير مراء ! ولئن رضيت عنها فما أنا براض .. ولكن. الذى يعنينى أن لا تكون قبلتها هى القبلة الأولى والأخيرة . فما رأيك ؟

قالت : ابغ لك مستشارا غيرى. إننى أعرف كيف أوفق بين الكسوة وصاحبتها، ولا معرفة لى بالتوفيق بين رجل وامرأ ة.

فلم يشأ همام أن يطيل الكلام ، ولم ينتظر صاحبه الذى لم يعد ولم يكن يبالي فى تلك الساعة أن يعود .وخرج منقبضا متحاملا يلوم نفسه على خروج الفتاة و لا يلوم نفسه على تقبيلها. كأنما كان يستطيع الفصل بين الأمرين !.. وعادت القبلة إلى شفتيه كأنها طيف يرف على مهاده الأول . حتى لقد أوشك أن يضم شفتيه ذلك الثغر الذى لاح له أنه ينضغط وينضغط من لينه وطراوته إلى غير نهاية.

وسرته لذعته الباردة كلذعة النعناع الذى هدأت سورته وبقيت ذكراه ، فازداد غما على غم ولعن ذلك الشيطان الكامن فى أعماق كل نفس يثير لواعجها وينكأ جراحها احتاجت إلى التهوين والنسيان .وذهب إلي المكتب فتلقاه الخادم قائلا : إن سيدة سألت عنك بالتليفون فلمd عره كببر التفات.

.

وعاد الخادم بعد فترة يقول : إن سيدة على التليفون تسأل عنك ، وأظنها السيدة فنهض همام إلى التليفون وآخر ما فى ذهنه أن المتكلمة هى فتاة ذلك الصباح ، وقال بغير اكتراث : من المتكلم ؟

قال صوت كصوت الفتاة بعد التحريف المعهود فى أداة الكيفون : ألا تعرفنى ؟

قال : عرفتك الأن . أنت سارة و لا ريب.

ولم يحظ هو ولا لاحظت هى أنه حذف اللقب وخاطبها باسمها كما يتخاطب الأصدقاء الأقدمون.

قالت : أو كنت تنتظر هذه المحادثة.

قال : لا أزعم أننى كنت أنتظرها، ولكنى أحسب أننى كنت أتمناها.

قالت : إذن هل تحب أن أراك الليلة فى دار الصور المتحركة.

قال : بل أحب أن نلتقى على انفراد. فذلك أروح وأسلم.

قالت : إنما عنيت أن تشهد الرواية لأنها تشبه قصتى تمام المشابهة . ويجوز أن تكون القصة مما يعنيك.

قال : لأن أسمعها من لسانك خير من أن أشهدها مع مئات.

قالت : فأين إذن.

قال : ما رأيك فى حديقة الأهرام ؟ إنها مكان قلما يغشاه أحد فى هذه الآونة وسنلتقي فى زاوية من الطريق ونستقل سيارة من هناك إلى الحديقة ، وأسمع منك أو أقول لك كل ما تحبين.

****

كان أول ما فاهت به وهى تجلس إلى جانبه فى السيارة أن قالت:

لابد أنك حسبتنى مجنونة وقلت فى خلدك : ما هذه الرعناء التى تقبل التقبيل ، ثم ،تخرج مغضبة ، ثم تتكلم بالتليفون ، ثم تحضر إلى الموعد طائعة ، فماذا بربك ؟ قل لي ولا تكذب

قال : على كل حال لست بأسف لجنونك.

قالت : وأنت يا حضرة العاقل الأريب الرشيد أما حاولت أن تفهم لماذا كان خروجي بهذه المفاجأة قبل أن ترمينى بالجنون ؟

قال مستفهما : أللأمر علاقة بماريانا ؟

قالت : هو ذاك . فلو أننى أطلت المكث لباخ الغضب بعد ذلك . ولو أننا تواعدنا أمامها لوقعت فى براثنها بلا رحمة ، فإما أن أطيعها فى كل ما يعن لها، واما التهديد والإنذار.

فربت على خدها كأنها طفلة أجادت درسها. وقال : إنك لحصيفة يا هذه التي تتطلع منى إلى تهمة الجنون . ولكنها حصافة مخيفة.

ثم حكى لها ما قالته ماريانا بعد انصرافها، وكيف أنها لم تغضب حين قبلها فكيف تغضب الفتيات الماجنات ؟ ... فأخذت تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع وثابت إلى الحصافة فأوصته أن يزور ماريانا فى اليوم التالى ويثابر على سؤالها بضعة أيام . ثم .ينسى المسألة كأنه ألقى بها فى ذمة المصادفات.

وانطوت المسافة إلى حديقة الأهرام بمثل لمح البصر، وزعم همام و هو يناول السائق أجره أن سيارته أسرع ما أنجبته المصانع الحديثة ، وأنه حرام عليه أن لا يشترك بها فى سباق السيارات.

وخف كل شيء فى الدنيا حتى أشفقا أن يذهل قانون الجاذبية عن واجبه المرسوم وشعرا بهذه الخفة من حولهما ولا سيما حين بصرا بالمكان خاليا من كل إنسان . فانطلق الكلام كأنه ثرثرة الأطفال ، وانبعثا معا في خلق جديد.

و طلبا الطعام فظهر لهمام أن صاحبته من صاحبات النظام المتحذرات من كل ما يجلب السمنة فى طعام وشراب . فصدفت عن كل ما اقترحه عليها إلا صحفة شواء لا تشبع : فأراد أن يحذرها من القسوة على جسدها وقال لها إن بعض الأجسام إذا خف لم تكن خفته على استواء واحد فيخف هنا ويسمن هناك يشوه من حيث يراد له حسن الهندام ، ولا ينال أصحابه إلا الجوع والندم!

فنظرت إليه بعينى طفلة تخاف ، وسألته مستوثقة : أحق ما تقول ؟

قال : حق كل الحق . وسأريك إذا زرتنى فى المنزل صور التماثيل التى يعدونه فى العالم بأسره نماذج لجمال الأنوثة ، فإن تماثيل الزهرة الى صنعتها اليونان –وهم أساتذة الذوق السليم . ليست على نحافة ولا دقة فى الخصور والأطراف ولكنها مثال الجسم المتين المنسوق . وسيفسد علينا سماسرة البدع الحديثة تنويع الجمال فى بنات حواء .. فأين نرى البضاضة والسموق إذ أصبح النساء وكلهن نحيفات هزيلات وكيف تتعدد القوالب إن كانت المرأة لا تخلق لنا إلا فى قالب واحد ؟

وسرها ما سمعت فسألته عفوا:

أيعجبك إذن هندام جسمى على ما هو عليه ؟

قال : متماجنا : ومن أين لى أن أحكم ؟

ثم أحجم من التمادى فى هذه النغمة ، وأيقن أنهما فى هذه الخفة التى يشعران بها ليستطيعان أن يتحدثا عن الموت كما يتحدثان عن الرقص واللهو والمجانة وأحب أن يتحول الحديث إلى قصة الزواج التى وعدته أن تقصها عليه ، والتى يتوقف على فهمه إياها أن يفهم مدى العلاقة التى ستجمعه بهذه الفتاة الجالسة فى تلك الساعة أمامه . فقال وهو لا يحذر من تنغيصها باستطراده:

إن كنت لا ترضين زوجا بالتماس النحافة فعلام كل هذا العناء أهناك رجل آخر ؟

وصح ما قدره همام ، فكان جوابها على نغمة الخفة التى شملت فى تلك الساعة كل شىء. وقالت : أو تحسب أن المرأة لا تتزين إلا لزوج أو حبيب ؟ إنها لتتزين لنفسها وانها لتتزين للرجل الذى فى عالم الخيال ، ولو لم يكن له فى عالم الواقع وجود.

واسترسلت تتهكم كأنما سألت نفسها وهى تسأله : أأرضى زوجا . ألا ليت هذا كل ما يعنينى ! ... إذن لأكلت قنطارا من الأرز والزبدة كل يوم!

واجتازت النقلة بين إرضاء الزوج وقصة الزواج فى جملة أو جملتين . ثم انقضى نصف ساعة علم فيها همام صفوة ما أرادت أن يعلم . فلو سأله سائل أصدقها فى جميع قولها . أعذرها فى جميع فعلها ؟ لكان من الصعب عليه أن يجيب بالإيجاب.

بيد أنه أدرك مما سمع أنها طفلة فقدت رحمة الأمومة . ونمت وهى لا تعرف إلا جماح الحيوية العارمة التى

لا تمسكها هداية أم ولا تقوى على حبسها التقاليد الضعاف ، و مع ذلك الذكاء الوقاد الذى لا تخفى عليه خافية الموانع والمحظورات ، وأنها لو سيقت إلى زوج يملأ عينها ويحقق معنى الرجولة فى رأيها لاستقرت بعض الاستقرار وقنعت بعض القنوع . ولكنها أخطأت حظها فى الزواج وبرمت بفراغ قلبها
فلم تعذر الدنيا، والتمست لقلبها وحده جميع الأعذار.

قالت وقد سردت له قصتها:

أصغرت الآن فى نظرك.

قال : أمني تطلبين الحكم ؟ أنا حاكم مغرض فلا تنفعك الشهادة منى.. غير أنى أقول إن الذين ينصفونك فى الدنيا قليلون.

قالت : لا حاجة بى إلى إنصاف الدنيا. فلتحفظه لمن يطلبونه.

ولقد رجعا من الحديقة إلى الجيزة مشيا على الأقدام ، لم يتعبا ولم يشكوا طول الطريق. وجاء الترام فركبت فى مقصورة النساء وركب مع الرجال

وكان الموعد الثانى فى بيت همام.

أيـــــــــام...

أجل هى فتاتى لا مراء فيها.

ولئن خشيت حبا فإنما هذه الفتاة التى يحق لى أن أخشى حبها وأخشاها .سنحت هذه الخاطرة فى حدس همام مع سنوح سارة فى أول الطريق طفرة واحدة.

وكان همام ممن يقيسون ارتقاء المرأة بسلوكها فى مسألة المواعيد. فأبغض النساء إليه المرأة التى تحسب سرور الرجل بلقياها سببا كافيا لتنكيده بالانتظار وتكديره بالإبطاء فى الحضور إلى الموعد، ولو كان فى وسعها أن تسبقه إليه..
وعندها أنه مادام راغبا فى لقائها فلا يصح أن يهنأ بهذه الرغبة خالصة ويسعد بهذه المتعة صافية ، وعليه أن يبدل ثمنها نكدا لا ضرورة له وعظة لا حاجة إليها، وهو صاغر راغم يحرق الأرم ولا يعرف له حيلة غير الإنابة والتسليم والا فماذا هو صانع ؟

وجواب" ماذا هو صانع ؟ " هذه يختلف باختلافها الرجال واختلاف أنواع الهوى . أما جوابها عند همام فهو الانتظار خمس عشرة دقيقة على الأكثر ريثما ينقضى أقصر المدى المفروض لاختلاف الساعات فى التقديم والتقدير. ثم ينصرف ولا يسأل عن العاقبة ، إلا إذا اتضح له بعد ذلك أن العذر مقبول.

فلما رأى سارة وهو يراقب الطريق من وراء النافذة – قد أقبلت فى أول الطريق قبل الموعد بدقيقتين أو ثلاث ، ولاحظ للمرة الثانية أنها تتحرى الدقة فى رعاية المواعيد، فرح بمعرفتها ورحب بالعلاقة بينه وبينها.
وأوجس فى حينها أن تتشب هذه العلاقة جذورها فى فؤاده فيتبعها ما لابد أن يتبعها من لواعج ونكبات وفواجع ، وأيقن أن هذه الفتاة تفهم كثيرا جدا . لأن الفتاة التى تفهم أن لها قيمة غير قيمة الدلال المصطنعة ، وأن العاطفة أنفس من أن العاطفة أنفس من أن تشاب بالتتكيد والتكدير لهي ذات صاحبة
ذكاء مطبوع يفقه قيمة الزمن وقيمة الشعور وقيمة السرور، ولا يقصر ذكاؤها على النظر إلى عقربى الساعة لإدراك الميعاد!

الحق أن سارة قد بهرت هماما ، بأشياء كثيرة فى أول زياراتها لمنزله غير رعايتها للمواعيد.

فلو كانت تعرف ما يروقه ويستهويه من النساء معرفة تفصيل وتدقيق لحسب أنها تجوز امتحانا عسيرا وتتعمد أن تخرج منه بالتزكية التى ليس بعدها تزكية ، والشهادة التي ليس فوقها شهادة.

هو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة ، ومسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحا موقعا تشبيها له بالغناء الذى ينطلق انطلاقا وانبعاثا ولكنه يقف حينما يحسن به الوقرف . ويسكن حينما يطيب منه السكون : يقف ويسكن لا على اقتضاب موحش وانقطاع ناشز، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن أو على قافية تختم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذى يريح ومشوق ويزيد لذة الإيقاع وطرافة السماع.

وهو يحب من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها إغراء لا يخفى، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد تكذيبها ببرهان.

وهو يحب الرأة التى تدرك الفكاهة ويكره التى تتخذ من فكاهتها صناعة أو معرضا مفتوحا فى كل ساعة ، وأقرب دلييل عنده على اتفاق المزاجين هو دليل نيتشه الذى يقول إن الضحك من نكتة واحدة هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين فى المزاج والتفكير، وما انفصل اثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما في تمييز النكات.

وهو يحب ربة البيت التى تكون أول خادمة فيه لأنها سيدته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التي تأنف من تلويث يديها فى مطبخها كما يحتقر الرجل الذى يأنف من تلويث يديه في حقله أو حديقة داره.

وهو يحب المرأة التي تستطيع أن تكون إنسانا فى بعض الأوقات بمعزل عن الأنوثة و الذكورة ، فلا تكون الأنوثة الحيوانية هي كل وظيفتها في الحياة.

ولقد تجلى له كل أولئك من سارة في أقل من ساعة ، يوم جاءته في أول زيارة . جاءته فى زينة تلفت العين إلى كل مزية في جسدها، ولا تلفت النظر إلى عيب و لم يكد يستقر بهما المجلس حتى نهضت إلى أثاث

الحجرة تضعه فى مواضعه إلتى تهواها، وإلى جوانب البيت تعيد تنظيمه على النحو الذي تود أن تراه ، وإلى المطبخ تجول فيه بنظرة فاحصة تدرك لأول وهلة كيف طهيت كل صفحة ، وكيف أعدت كل طبخة ، وكيف لوحظت النظافة في التحضير و الغسل والتجفيف.

و حان وقت المائدة فقدم لها فقدم لها الديك قائلا : هذا اعتراف بفضل الديك في تعرفنا وتمهيد محادثتنا الاولي .

فما أسرع ما قالها حتى بادرته متهاتفة : لا أحب يا صاحبى أن تعرف لي فضلا على هذه الطريقة!

فطرب للنكتة ووجم فى وقت واحد، ولو كان يتوقع عند فتاة صغيرة هذه الفكاهة الماضية لاحترس بعض الاحتراس ولكنها فاجأته بها فوجم ولم يسعه إلا أن ينقذ نفسه وهو يردد فى شيء من التلعثم : إن كنت لا تأبين أن أمزجك بدمى ولحمي وأن أجعلك جزءا منى فالطريقة لا تهم ، وأنت أكلة شهية تطيب لي بغير حتجة إلى السكاكين والقدور!

وكان حديثها على المائدة وقد استغرقت ساعتين على هذه الوتيرة من أمتع وأفكه ما تكون احاديث الموائد.

لاحظت أنه لا كل من صدر الديك ويقصر اختياره على الجناحين والوركين . فقالت : كان من حقنا أن نتزوج ، فنحن زوجان طبيعيان : أنت لا تأكل الصدر وأنا لا أكل غيره ، فلا يشجر بيننا نزاع.

قال عفو الخاطر غير عامد لما يقول : هذا مذهب شوبنهور منقولا إلى المطبخ !

وأحس أنه أقحم اسم شوبنهور فى غير مقحم . أعلى المائدة ومع فتاة يدار ذكر هذا الفيلسوف المتشائم عدو النساء.

وانه ليهم بتوبخ لسانه والتراجع إلى موضوع غير هذا الموضوع الذى أثاره وانه ليريد أن يأخذ عليها سبيل السؤال عن شهوبنهور ومذهب شوبنهور إذا هى تلاحقه قائلة:

نعم ، القصير يطلب الطويلة والأبيض يطلب السمراء والبدين يطلب النحيفة ، ومن يأكل جناح الدجاجة يطلب من لا تأكل الجناح ... هذا تطبيق صحيح لمذهب الفيلسوف.

فراعه تعقيبها وسرعة التفاتها إلى َمحل الشاهد كما يقولان أضعاف ما راعته نكاتها، ولمحت هى دهشته فاستطردت تقول : على رسلك ! لا تخف ولا تجفل ! فلست بحمد الله فيلسوفة وما قرأت شوبنهور إلا لأن أحدا أرادنى على قراءته ، ولأن تفهيمه إياى كان ذريعة اللقاء بيننا، وما كان بالجائز أن يحضر إلى ليفهمنى رواية أو مقالة ممتعة ... فلم يعد لنا بد من الفلسلة وأمرنا إلى الله ! ! فأغرب همام فى الضحك لأنه تخيل شوبنهور العظيم بوجهه العبوس وعينيه الظريفتين تبرقان من الحرد والسخرية وهو يسمع بأذنيه كيف انتقمت منه امرأة وهزئت به ، وسخّرت فلسفته لغرامـــــــــــها.

وأثنى همام على صراحة سارة وقلة دعواها واطمأن إلى سياق الفلاسفة والشعراء فقال : الآن آمنت مرة أخرى أن صديقي (هيني) خبير بالنساء في جده ومزاحه..

قال : لا تتهيبي . فليس هو بفيلسوف مغاق ولا هو بالكاتب الذي يحوجك إلى ترجمان أو مفسر . إن حلالك أن تقرئيه وحدك فهو شاعر سلس سائغ وما أحسب له نظيرا في الدعابة وخفة الروح.

قالت : أصحيح ؟ وماذا قال عنا معشر النساء هذا الشاعر الظريف ؟

قال : إنه ضجر من سيدة دعية لها عين واحدة تتطفل على الأدب فكتب عنها يقول : كل امرأة تكتب فإنما تتجه بإحدى عينيها إلى القرطاس وبالعين الثانية إلى رجل .. ما عدا فلانة طبعا .. فإن لها عينا واحدة كما يعلم القراء!.

فراقتها غمزة الشاعر للمرأة الدعية . وقالت : أما من جهتي أنا فإني لأقر وأقسم بين يديك وبين يدي الله إن هيني لظريف وإنه لصادق فما تقرأ المرأة إلا عن رجل أو بسبب رجل وكل ما عدا ذلك كذب وادعاء .

وتشعب الحديث وتفتحت مغاليق الأسرار من الجانبين وفي غير مناسبة ظاهرة سألته وفي عينها خبث كخبث الأطفال المناوئين :

كم عمرك يا همام ؟

قال همام : دعي هذه المحرجات يا بنية : فإن أبيت إلا الإلحاح فسأخبرك على شريطة واحدة وهي أن تخبريني أنت بداءة لماذا تسألين ؟

قالت : ولم ؟ أيتغير عمرك بتغير أسباب السؤال ؟ على أني لا أنوي أن أدعك تطيل التخمين واريد أن أفرض لك اثنتين وثلاثين سنة إذا كنا متفقين في نسبة السن كما اتفقنا في غيرها من المقارنات . فإنني أنا في الثالثة والعشرين وينبغي أن يكون عمر المرأة نصف عمر الرجل مضافا إليه سبع سنوات ..

قال : بل تسمحين أن يكون عمرك خمسا وعشرين ليتفق الحساب من الطرفين واقسم لك أنني ما أسقطت يوما واحدا وإنك أسقطت السنتين الناقصتين!!

من الواجب أن نعرف لأيام النعيم وداعا غير وداع الأسى والأنين الذى اصطلح عليه شعراء الاصطلاح فى بعض العصور العربية.

فمن الخيانة للسرور عند هؤلاء الناس أن تلوح له ساعة وداعه بمنديل غيرمبلول ، وأن تفرغ منه شبعان راضيا عن الشبع شاكرا للزاد، خاليا بذكرياته للتملي به و التأمل فيه.

وشعراء الاصطلاح جهلاء بالإنسان لا يدرون ما الأسى ولا يدرون ما السرور فالواقع إن الإنسان ليرحب بالشبع من النعيم وهو شاكر كما يرحب بالشبع من المائدة وهو شاكر، وترتفع المائدة فلا يحزنه أن ترتفع بعد

ما استوفى صنوفها وروى أحشاءه من أكالها وأشرباتها وهنأ حواسه جميعا بما استطاع أن يلتهم من دسمها وحلواها، ومن شبع من الروضة زهرا ولونا وأريجا وظلا فلابد أن يشوقه أن يغمض
عينيه ليشبع منها خيالا ومراجعة ويضع لها صورة مجملة يتأملها ويستبقيها، و يفسح لها مكانا من متحف النفس تأوي إليه أبد الآبدين بنجوة عن الواقع وطوارق الأحداث.

انتهى السرور الظاهر فليبدأ السرور الباطن ، وذهب السرور العابر فليبق السرور الدائم ، وتم السرور الذى يملكنا ويؤثر فينا فلننظر فى السرور الذى نملكه ونؤثر فيه.

وهكذا ودع همام يومه شبعان جد الشبع ، قانعا أوفى ما تكون القناعة في تركيب أبناء الفناء ، مستريحا إلى الوداع كما يستريح الشاكر المكتفي لا كما يستريح السائم الملول ، وأغمض عينيه على فراشه تلك الليلة يستعيد ويستجمع ويتحدى النوم وهو مقبل إليه.

أيها النوم أتحدى أحلامك أن تعطينى فوق ما أخذت اليوم فى صحو اليقظة وأنا كاسب الرهان على الحالين ...

***

وتوالت المواعيد بعد الزيارة الأولى على تباعد بينهما فى مبدأ الأمر، ثم على تقارب موشك أن يكون بلا انقطاع.

إلا أنهما ،اتفقا على أن ينذرا سحابة يوم الجمعة لخلوة كاملة لا مشاركة فيها ولا يعوقهما عنها عائق. .

فيوما على رمال الهرم ، لأنها تريد أن توقظ الفراعنة!
ويوما فى القناطر الخيرية ، لأنها تريد أن تحاسب النيل العتيق على عرائسه الغريقات.
ويوما على زورق بين روض الفرج والروضة ، ويوما فى حلوان ، ويوما عند أثار صقارة ، ويوما فى صحراء الماظة ، ويوما فى جوار عين شمس والمطرية . فإن لم تكن رياضة خلاء فعكوف فى المنزل من الصباح إلى المساء وذلك أمتع الأيام.

يخلو المنزل نهارها فلا طاهى فيه ولا خادم ولا نزيل غير سارة وهمام ، وقد جعلا خدمة المنزل فى ذلك اليوم شعائر مقدسة كالشعائر التى يتولاها الكهان فهما يتبركان بها ولا يخجلان منها : هى فى يدها المكنسة وهو فى يده سكينة التخريط .. أو هي تمزج الحلوى وهو يقلب الآنية على النار ... أو هى تملا الأطباق وهو ينقلها إلى المائدة ، حتى إذا حان وقت الطعام مثلت إلى جانب المائدة فى وقار وخشوع وقالت : انتهى دور الخدمة . فتفضلوا أيها السادة.

وتتسرب إلى المنزل أنباء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة فى معظم الأيام فيقرأن أو يسمعان بعض الأغانى، أو يلعبان الدومينة قليلا وهى لعبة تحذقها سارة و يعتقد همام أنها أصلح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة.

فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة وكل شيء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادقة والذكاء وكل شيء فيه مكشوف بعد ذلك . والورق إما مصادفة وإما صراع قلما يشبه صراع الحياة .

أما – الدومينة – ففيها حساب للمصادفة وفيها حساب للتدبير وفيها حساب لليقين وفيها حساب للظنون، وفيها حساب للغيب الذى تجهله أنت وخصمك وللغيب الذى تجهله أنت ، ويعرفه خصمك أو يجهله وهو تعرفه أنت ، وللعيان الذى يعرفه كل من يشاء، ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما فى يدك.

قالت سارة يوما بعد ما استعادته شرح" فلسفة الدومينة" للمرة الخامسة او السادسة : أولا تستمتع بشيء إلا أن تكون له فلسفة ؟

قال : لا. بل أنا أستمتع بالشيء ،ثم أبحث عن فلسفته ، واننى لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس فى جوانب فمه ولهواته ، كى لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه . فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه واستقصى معناه.

وأمثال هذه الأسئلة كانت تصدر منها كما يسأل الصبى أباه الشيخ فى دالة ومحبة ، أو كما يفتش المالك منزلا دخله واستولى عليه فراح يسأل عن كل صغيرة وكبيرة فيه ، فما كان فى تلك الأسئلة فضول غريب ولا تهجم واغل ، ولكن السائل والمسؤول منه هما جزء من مكان واحد تدور عليهما أسواره وتحتويهما جدرانه ، ويتفقد فيه من يشاء، ولا فضول ولا اقتحام.

لماذا هام بها

حواء أخرجت من جنة ، ، وبناتها كل يوم يخرجن من جنات .. فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر ؟ لا ندرى. ولكنها هى المرأة أبدا لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها، أو يسعد بغير سعادتها. وليس يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع سعادته دون كل ينبوع . وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه وألمها، ولم يرضها أن تشاركه السعادة الوافية ، إن كان للسعادة سبب سواها.

كان همام قانعا بالمودة الهنيئة الوادعة بينه وبين سارة ، إن حضرت سره حضورها، وان غابت لم يغضبه غيابها، لا يفرض عليها حقا ولا يحسب أنها تفرض ،وقتها عليه ، ويتصلان وينفصلان ولا قلق فى الأمر ولا استطلاع ولا استكراه ، لها

وقتها كله وله وقته كله ، إلا ما يسترقان فيه من الوقت فهو لهما على السواء ، بلا اقتسام ولا جور ولا اعتداء.

غير أن سارة لم يعجبها هذا الجدول المترقرق المناسب وأبت إلا أن تراه شلالا يعج ويثور، ويضطرب ويمرر، فنصبت فيه الحواجز وأقامت فيه الصخور.

كان يسألها في مبدأ العلاقة بينهما عن الموعد المقبل فتذكر له يوما ويذكر هو ذلك اليوم يوم زيارة صديق أو يوم شهود احتفال أو يوم عمل من الأعمال التى تشغله عن اللقاء ، ويرجوها أن تنظر في تأجيل الموعد ، فلا يعجبها ذلك.

وكانت تستعجل الانصراف فى بعض زياراتها وتعتذر إليه بمواعيد أو بمصلحة أو بما شابه هذه المعاذير، فيأذن لها ولا يمسكها، فلا يعجبها ذلك!

وقالت له يوما بعبارة صريحة إنه لو أمرها بالبقاء لبقيت وهى مسرورة . وقالت له أياما إنه لو فضل موعدها على كل موعد غيره لفهمت أنها أثيرة عنده وأن لقاءها محبب إليه مفضل لديه ، فلما قال لها أنه يفضل لقاءها على غيره إذا كان حرا فى الارتباط بهذا أو بذاك . قالت هذه حجج يحتج بها الرجال حين لا يريدون و ينبذونها حين يريدون ، وإنه لو ترك من أجلها ميعادا لتركت من أجله مواعيد.

واستجابت لنفسها رويدا رويدا أن تفتش فى أوراقه الخاصة وهو لا يمنعها. فعثرت فيها مرة بصورة فتاة هيفاء مشرقة القوام في غلالة تنم على محاسن بدنها وانسجام أوصالها. فصاحت به عابسة : ما هذه ؟

وكان همام قد نسى الصورة ونسى أنها هناك . فنظر إليها وقال بغير اكتراث:

فتاة راقصة.

غير أنه لاحظ أن سارة لم تؤخذ بجمال الفتاة كما أخذت بنوع جمالها، فلو كانت أجمل مما هى مائة مرة وكانت تشبه سارة فى بضاضتها لما رامها أن تعثر بصورتها هناك تلك الروعة التى بدرت منها فى صيحتها العابسة . ولكن الفتاة هيفاء، جميلة الهيف ، وليس فيها ما يعيب بعض النحيفات من هزال وقلة اعتدال ، وطلعتها مع ذلك طلعة راقصة كسائر أوصالها تكاد تنضر بالخفة والنغم.

وقد كانت نوبة النحافة و التنحيف يومئذ فى بدايتها وفى إبانها ، وكانت سارة تروض بدنها رياضة قاسية لتخف وتستوي على طراز الجمال الحديث ، فكان هذا جميعه مما ضاعف اهتمامها بالفتاة وألهب فضولها.

قالت : وفيم تحتفظ بها.
قال : صورة فنية جملية ، كأنها تمثال أو كأنها تحفة.

قالت وهى تنظر إلى توقيع الفتاة وخطها الركيك : ولماذا هذا التوقيع ؟ ولماذا لم

تقرنها بثانية وثالثة ورابعة ؟ أهى الراقصة الوحيدة التى راقك جمالها.

قال : إن كان لا يقنعك إلا مجموعة كاملة من صور الراقصات فليس فى الأمر صعوبة .. ثم قال : لو علمت

يا خبيثة مقدار ما وهبك الله من حدة الذكاء لأنفت أن تغاري من صاحبة هذه الصورة وأنت ترين – أميتها – ماثلة فى خطها.

قالت : أو تظن أنني أبتهج بأن تحبني لحدة ذكائي وتحب هذه الراقصة لما .. لما لست أدرى ما أنت واجد فيها ؟

قأد : أنا لا أحبها...

قالت : أصحيح ! إذن هل أنا فى حل من تمزيق الصورة.
قال : لا أمنعك ولكنها خسارة.

قالت : أهى خسارة أم تخشى أن تسألك عنها صاحبتها إننى لا أنافس الراقصات يا سيدى ! فاحتفظ بالصورة كما تهوى، ولكن أرجوك أن ترد إلى صورتى. فلست أختار لها أن تقيم هنا وأمثال هذه الصور فى مكان واحد.

فكبر الأمر فى همام ، و أحس لأول مرة أن فراق سارة يثقل عليه ، فقال لها إن كان لا يريحك إلا أن تمزقي الصورة فمزقيها...

فما أمهلته أن يتم الجملة حتى قبضت على الصورة تمزقها كل ممزق كأنها تضمر لصاحبتها ضغينة وهى لم ترها ولم تسمع باسمها، ولا يذكر همام أنه بصر بامرأة تفرح هذا الفرح بتمزيق ورقة إلا امرأة جاهلة أسلمها الساحر المشعوذ لفة من الورق زعم أنها هى الرقية التى كتبتها لها الضرائر ليبتينها بالسقم فى جسمها والنكد فى عيشها. فمزقتها وكأنها تود<أن يصير جسمها كله أيديا تشترك فى تمزيقها.

وهكذا أخذت تحاسبه وأخذ يحاسبها، وشعر بالتضييق عليه ولكنه لم يضجر منه ولم يتبرم بالباعث إليه ، وأنشأ يتعود أن يفكر فيما تصنع وفيمن تلقاه أثناء غيابه ويتعود أن يسألها وأن يتحرى حركاتها .. وفرغ لها فوقع فى روعه أن لا يقتع منها بما دون الاستئثار والتفرد، وانقلب الجدول الهادئ المنساب رويد رويدا فغاب فيه الحمل الوديع وبرز منه الأسد المتحفز، ولو ظل كما كان جدولا وديعا لصفا واسترسل
أو لانتهى كما ينتهى النهر إلى مصبه فى رفق وسخاوة.

ذلك سبب من أسباب الهيام وقلما يكون الهيام لسبب واحد.

ومن أسبابه الكثيرة لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتحديد والتنويع ، فإن الرجل ليسره أن يستكشف المرأة ، ويسره أن لا يزال واجدا فيها كل حين ميدانا جديدا للاستكساف ، ويسره أن يراقب المرأة وهى تستكشفه وتتخذ لها منسربا إلى عواطفه ، ويرفع من دخائله حجابا وراء حجاب ، ويسره أن يستكشفا الدنيا معا والناس معا والطبيعة معا بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين ، وضياء كله شفوفوتجديد وأفاق تنساح إلى أفاق.

فإن وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سببا للسأمة والعزوف لا سببا للشغف والهيام.

إن المرأة فى استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدى أولا وآخرا إلى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة إلى تلك الرهبة ، ثم يرتع فى صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها.

وان الرجل فى استكشافه المرأة لكمن يجوس خلال الروضة الأريضة ليهتدى إلى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين ألفافها وثناياها. فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها وهى تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه . ثم تصبح الروضة روضة وغابة ، والغابة غابة وروضة ، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به إذا خرجا إلى الدنيا ولا يشعران به وهما بنجوة منها.

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان ، بل يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه كأنهما رحالتان فى نزهة طويلة ، يشتركان فى مراجعة عمل النهار كلما سكنا إلى ظلال الخيمة فى ظلام المساء.

كان يراقبها فى نفسها ويراقبها فى نفسه : كان يرى المرأة المرحة الطروب وهي تلهو و تعبث ، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهى تلتمس الأمان والعزاء، ويرى الإنسانة الفطرية وهى تطيع الغريزة و تلبس دورها على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائها، ويرى المرأة الذكية وهى تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركة ، ويرى المرأة العصرية وهى تتغلب على امرأة الجيل الغابر فى ميدان ،لها وتنهزم أمامها فى ميدان ، ويرى من وراء ذلك جميعه وفى خلال ذلك المرأة الخالد التي لا تتبدل ولا تتغير والأنثى السرمدية التي يهمها من الذكر الحماية والجاه قبل كل شيء وبعد كل شيء ولا يهمها العقل والرجحان والفضائل والمناقب إلا لأنها وجه من وجوه الحماية والجــــــــاه ..

لقد أكبرته كثيرا وهى تسمع الثناء عليه فى مجالس أناس من علية الناس لا يعلمون ما بينهما من صلة ، ولا يستريحون إليها لو علموها.

ولقد أكبرته كثيرا وهى تقرأ له أسفار النوابغ من أساطين الأقدمين وفحول المحدثين الغربيين وهو يعقب على ما يسمع بكلمة هنا وكلمة هناك ، ويناقش لها ما يبدو حقيق بالمناقشة . وليست هى من الجهل بحيث يخفى عليها سداد مناقشاته ، وليست هى من قلة الثقة به بحيث تغلق المنافذ على ذهنها مكابرة و تقليدا كما يفعل العامة الجامدون ، وليست هى من العلم بحيث تفهم أن نوابغ العرب كائنة ما كانت أقدارهم وبالغة ما بلغ صيتهم واشتهارهم خاضعون للنقد قابلون للتشريح والتصحيح ، بل هى قد نشأت نشأتها الأولى على تقديـر هؤلاء النوابغ والعلو بهم إلى مرتبة العصمة والتأليه ، فإذا بدهتها الملاحظة ولم تجهل سدادها فغرت فاها الصغير و حملقت بعينيها الواسعتين كما تفعل الطفلة وهى تتفرج على منظر طريف . وجال فى قلبها إكبار تعبر منه ماتستطيع من علامات التحبب والتدليل.

إلا أن شيئا من ذلك – فى مدى السنوات الطوال – لم ينعشها ولم يلمس كوامن أنوثتها ولم يقدح من سرورها

به وحنينها إلى جواره مثل مانعشها وسرى فيها وتجلى عليها فى حادثة عرضية حدثت ذات مساء فى مركبة من مركبات الأجرة بين الزمالك والجزيرة:

كانت المركبة تسير على مهل والحوذى قد غفل عن إشعال مصابيحها بعد مغيب الشمس، فصدمت واحدا من ثلاثة أو أربعة من رجال الضبط كانوا يتمشون على ساحل النيل فى محاذاة العوامات والذهبيات ، وذلك جرم من الحوذى تضيق عنه رحمة الله ! فإن كل شيء ليجوز للحوذى الغافل إلا أن يصدم السادة رجال الضبط وهم هم أصحاب الحول والطول والقول الفصل فى الخيل والمركبات والسيارات والحوذية
والساقة وما يحملون ومن يحملون ! .. فإذا كان ذلك فى أثناء تأدية وظيفة كما يسهل القول والإثبات فويل يومئذ للمسكين ! ثم ويل يومئذ للمسكين ... إنه لذاهب من الدار إلى النار وما له من شفيع.

وقد كان أصاب الغافل الأثيم جزاءه اليسير فى سرعة لا تليق بمركبات الخيل ولو كان لها مائة حصان ، فجذبه رجال الأمن من مقعده الرفيع وصافحوا صدغيه بكل ما وسعته الكفوف من مران على هذا الضرب من المصافحات ، وجعل الرجل يستغيث ويعتذر ويتوسل ولا جواب له إلا ضربات متادركات تتبارى فيها الألسنة والكفوف.

وطال الخصام ولاح لهمام أنه لا يؤذن بختام ... فلم يجد مناصا من النزول والسعى فى الإصلاح . ولم يغب من باله أن اللجاجة قد تفضى برجل الضبط المعتدى عليه إلي كتابة محضر واستدعاء شهود وأنه سيكون لا محالة واحدا من هؤلاء الشهود. فإذا أفضى الأمر إلى ذلك فقد كان ينوى أن يعطيهم عنوانه إن قنعوا به ، أو يصاحبهم بعد أن يحتال فى صرف سارة وابعادها من القضية ما استطاع.

على أن المسألة لم تلجئ لشيء من ذلك ولم تستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين فقد كان رجال الضبط ظرفاء رقاق الحاشية يعرفون هماما بالرؤية والسماع وان لم تجمعهم به صداقة . فتلطف أكبرهم وحيى هماما بلقبه دون اسمه ، واتجه إلى الحوذى بعد أن صفعه الصفعة الأخيرة ... وأسلمه الرخصة المنزوعة ... وهو يهنئه بالسلامة إكراما للرجل الذى معه لا إكراما لأمه وأبيه الذين من صفاتهما
كيت وكيت ، كما علم قبل ذلك على ما يظهر.

لم تكن سارة من السذاجة بحيث تفرق من محذور هذه الحادثة ، ولم تكن من قلة الحيلة بحيث تعنى بتدبيرها إن ساءت الجريرة وقد أفهمها همام قبل نزوله من المركبة أن اتقاء المحذور سهل من "الوجهة الرسمية " ... وقد سبق لهما أن تعرضا معا لمهاجمة بعض العاطلين الذين يأخذون الطرقات على المارة فى الضواحى البعيدة رجاء المساومة على ما يحسبونة من الفضائح الغرامية . فنظرت إليهم غير حافلة وتركت هماما يزجرهم وينهرهم ليعلموا أن لا رجاء فى مساومة ولا خوف من فضيحة . فلم يكون سرورها بصاحبها تلك الليلة سرور النجاة من مأزق مخيف والفزع من عاقبة محذورة ، وانما كان سرور المرأة بالحماية والثقة والاستسلام وهى مغمضة العينين.

فلما عاد همام إلى المركبة واستوى فى مكانه فيها لم تزد على أن زحفت إلى جانبه واستكانت إلى جواره و

تطامنت فى حضنه تطامن الفرخ فى حضن أبيه ، وهمست تحت أذنه وهى تمسح خدها بخده ما أسعدنى بجوارك سيدى ومولاى...

وكانت تلك أول مرة دعته فيها تلك الدعوة ، وكان ذلك كل ما فاهت به من تعبير عن سرورها وما كانت فى حاجة إلى أن تزيد ... فقد كان شعور همام بسرورها الناعم المرفوف الشكور غنيا عن كل كلام.

وعرف همام أنها استكشفته وطبعته فى صفحة المحاكاة عندها بعد فتره وجيزة فجعلت تحكيه وتمثله فى ضحكه وحديثه وتأمينه الصامت واعتراضه بالإشارة ، وردوده وهو مشغول ، وردوده وهو حاضر القريحة . وتعقد أحيانا محادثة طويلة بينها وبين نفسها. تتكلم فيها مرة بصوتها وأسلوبها ومرة بصوت همام وأسلوبه ، فتجيد المحاكاة فى اللهجة والتفكير إجادة لا يعيبها الفرق بين الصوتين والجسمين والهيئتين ، بل يزيدها ملاحة على ملاحة.

وانها لقد عرفت منه بزكانة المرأة فى شهر واحد ما لم يعرفه أصدقاؤه و خلطاؤه فى أعوام . فتقول له إن الزوبعة منك لا تخيف ولا تطول بمقدار ما يخيف الاستقرار الذى بطل فيه التردد وخلا من كل هياج وكل ثورة ، وتقول له : إننى إذا أردت أن أهزمك لم أبرز لك بسلاح ولم ألبس لك سكة الحرب . فأقودك من أذنيك.

ومازالا يتكاشفان ويتكاشفان حتى علما أنهما مكشوفان لا يتواريان فى جنة لا ينبت فيها ورق التين . فكان هذا التكاشف سببا ثانيا من أسباب هيام همام ، وقلما ينحصر الهيام فى سببين إثنين!

****

نعم فقد كانت لهيامه بها أسباب مختلفات ، بعضها محدود واضح المعام وبعضها مزيج من شتى أسباب لا تتضح لها حدود.

فمن تلك الأسباب الواضحة أنه كان يحس إحساسا شديدا أن توديع هذه العاطفة قد يرادف فى معناه توديع الحياة.

لأنه تعلق بها وهو فى العقد الرابع من عمره . فإذا انقطع ما بينه وبينها فمن له بفتاة تخلفها فى مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها ؟ وإذا وجد الفتاة فمن له بالقلب الذى يلبي دواعى الصبا وينزع منازع الفتوة ويتقد ويخبو على حسب المشيئة ، ويغامر اليوم فى عاطفة مرجوة وقد كان بالأمس فى عاطفة يائسة مضيعة ؟

إن خبت هذه العاطفة فهى جذوة الغرام الأخيرة ، وعليه أن يذكيها ويرعاها كما كان الأقدمون يرعون الشعلة المقدسة مخافة أن تنطفئ فلا يستعيدوها، قبل أن يحذقوا صناعة الزناد والثقاب.

ومن أسباب هيامه بها ألفة متغلغلة فى أنحاء النفس والجسد كالمدمن لعقار المخدر : من شاء أن يسميها حبا فهو صادق ، ومن شاء أن يسميها بغضا فهو صادق ، ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو

راغب فيه . ولمن شاء أن يزعم أنه يتعاطاه وهو وهو ساخط عليه ، فقصارى القول أنه يتعاطاه وأن الإقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة..

ومن الحق أن نذكر هنا أن الرجل يعشق الأنثى فى مبدأ الأمر لأنها امرأة بعينها: امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التى تتميز بها بين سائر النساء، ولكنه إذا أوغل في عشقها وانغمس فيه أحبها لأنها " المرأة " كلها أو المرأة التى تتمثل فيها الأنوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها، فهى تثير فيه كل ما تثيره الأنوثة من شعور الحياة . وأى شعور هو بعيد من نفس الإنسان فى هذه الحالة ؟ إن
الأنوثة تثير فيه شعور القوة ، وشعور الجمال ، وشعور اللذة ، وشعور الألم ، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة ، وشعور الإنسان كله ، وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ومن أغوار لا يسير مداها فى النور والظلام : لأن المرأة حين تمثل الأنوثة هى مناط الخلق والتكوين وأداة التوليد والدوام والخلود، وهى مظهر القوة التى يبديها كل شىء فى الوجود وكل شىء في. الإنسان.

وكذلك تجمعت أسباب الهيام من ألفة إلى متعة إلى تفاهم إلى اتفاق فى أمور، إلى اختلاف فى أمور غيرها، حتى استحكمت أواصر الملازمة ، وتلاحمت وشائج الفتنة . فلما أنشأ يحاسبها على حقوق الوفاء، ويتقاضاها أمانة الإخلاص ، لم يكن ذلك غلوا منه فى تنزيه العصمة الإنسانية ولا غلوا فى تنزيه عصمتها، ولكنه حاسبها ذلك الحساب لأنه حتم لا مندوحة له عنه ، ولأن السكوت عنها كان أشق عليه من حسابها.

وإلا فماذا هو صانع ! أيفارقها ؟ ذلك عسير !

أيستبقيها على أن يكون لها وحدها ولا تكون له وحده ؟ ليس ذلك بيسير !

وهكذا يتفق أن يحاسب الرجل المرأة بميزان الملائمة وهو لا يستبعد منها غدر الشياطين.

حبـــــــــان

إذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء فذلك هو الحب.
إذا أصبح النساء جميعا لا يغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة فذلك هو الحب.
إذا ميز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء، ولا لأنها أذكى النساء، ولا لأنها أوفى النساء، ولا لأنها أولى النساء بالحب ، ولكن لأنها هى هى بمحاسنها وعيوبها فذلك هو الحب.

وقد يميز الرجل امرأتين فى وقت واحد. لكن لابد من اختلاف بين الحبين فى النوع ، أو في الدرجة ، أو في الرجــــــــاء.!

فيكون أحد الحبين خالصا للروح والوجدان ، ويكون الحب الآخر مستغرقــــا شاملا للروحين والجسدين.

أو يكون أحد الحبين مقبلا صامدا ، والحب الآخر آخذا فى الإدبار والهبوط.
أو يكون أحد الحبين مقبلا صاعدا ، والحب الآخر مشوبا باليأس والريبة.

أما أن يجتمع حبان قويان من نوع واحد فى وقت واحد فذلك ازدواج غير معهود فى الطباع . لأن العاطفة لا تقف دون المدى ولا تعرف الحدود، واذا بلغت العاطفة مداها جبت ما سواها!

وقد كان همام يحب امرأة أخرى حين التقى بسارة فى بيت ماريانا : يحبها الحب الذى جعله ينتظر الرسالة أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء وكانا كثيرا ما يتراسلان أو يتحدثان ، وكثيرا ما يتباعدان و يلتزمان الصمت الطويل إيثارا للتقية واجتنابا للقيل والقال وتهدئة من جماح العاطفة وإذا خافا عليها الانقطاع .

ولكنهما فى جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان بأهداف الأغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق..

كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل ، ولا يزيدان.

وكان يغازلها فتومئ إليه بإصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فإذا نظر إلى عينيها لم يدر أتستزيد أم تنهاه ، ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنغمة إلى مقام النشوز.

وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والأمل ، فإذا لقيها بعد ذلك لم ير منهاماينم عن استياء، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب ، وانما يسمر الجواب باللحن والإيماء دون الإعراب والإفصاح.

وربما تواعدا إلى جلسة من جلسات الصور المتحركة فى مكان لا غبار عليه ، فيتحدثان بلسان بطل الرواية وبطلتها، ويسهبان ما احتملت الكناية الإسهاب . ثم يغيران سياق الحديث فى غير اقتضاب ولا ابتسار.

وكانا أشبه بالنجمين السيارين فى المنظومة الواحدة لا يزالان يحومان في نطاق واحد، ويتجاذبان حول محور واحد، ولكنهما يحذران التقارب .. لأنه اصطدام.

ولم تكن هند – وليكن اسمها هندا – لتعتقد الرهبانية فى همام ، ولا لتزعم بينها وبين وجدانها أنه معزول عن عالم النساء. غير أنها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء ما دام اسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة ، وشبح غرام واحد. فإن اسم النساء في هذه الحالة لا يدل على معنى، ولا انتقاص فيه لما بينهما من رعاية واستئثار.

فلما شعرت بأن النساء تحولن عنده إلى امرأة لها شأن غير شؤون أخواتها من بنات حواء زارته على حين غرة فى مكتب عمله ، وهى الزيارة الأولى والأخيرة من قبيلها، ولم يكن لها مسوغ من طول الغيبة ولا امتناع الحديث فى التليفون . فما شك لحظة فى غرض الزيارة ولا فى باعثها وتوقع منها عتبا عنيفا على أسلوبها فى التعبير الصامت المبين ، ولكنه علم سلفا أنها غير منصفة فى عتبها، لأنه لم يختلس منها شيئا هو

من حقها عليه فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزياراتها وابتهاجه بسؤالها عنه ،
وأنصت مترقبا ...فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج:

-لست زائرة ولا سائلة!

قال : إذن...

ولم يتمها لأنها نظرت إليه كمن يستحلفه أن لا يتكلم . وانحدرت من عينيها دمعتان.

فما تمالك نفسه أن تناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها، فمانعته ولم تكف عن النظر إليه . ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة : وهى تتمتم هامسة:

دع يدي ودعني ! ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع.

لو جاءت هذه الزيارة وهمام فى بداية العلاقة بسارة لما كان بعيدا أن تقضى على تلك العلاقة ، وأن ترد سارة اسما مغمورا فى عامة عنوان النساء.

بيد أنها جاءت وقد أوغلت العلاقة بينهما إيغالها الذى لا تراجع فيه ، وصمدت على طريقها تعدو مع الأيام عدوا لا تنظر فيه إلى الوراء . وفسح لها الطريق أن هماما لم يكن يوغل فيها مثقلا بتبكيت ضمير. لأنه لم يخن هندا ولم يقصر فى حقها عليه ولا وهم أنها تغضب من أمر لا عهد بينه وبينها فيه.

لقد كانت سارة وهند على مثالين من الأنوثة متناقضين : كلتاهما أنثى حقا لا تخرج عن نطاق جنسها، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداهما أن تحل محل الثانية ، و يوشك أن تزدريها.

ماذا أقول ؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلتاهما قبسا من طبيعة الأخرى، لولا أنها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها، فتسمح للتمنى أن يستحيل إلى نفور.

فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة فهند خلقت راهبة فى دير،من غير حاجة إلى الدير

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، و هذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود، ثم توشيها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجوهر.

الحزن الرفيع و الألم العزيز شفاعة عند هند مقبولة إذا لم تكن هى وحدها الشفاعة المقبولة . أما عند سارة فالشفاعة الأولى بل السفاعة العليا هى النعيم والسرور.

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم.

تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب فى بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى، وهذه تشكو كما يبكى الطفل لينال نصيبا فوق نصيبه من الحلوى.

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة ، وتعرضها فى معرض الزينة والمباهاة.

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاصة و البساطة.

لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت فى السلك السياسى، ولو عملت هذه عمل

الرجال لانتظمت نديما فى حاشية أمير مفراح.

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال فى هند كالحصن الذى الذي يحيط به الخندق . أما الجمال في سارة فكالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النمير هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان و هو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور.

تلك ذات طموح وهمم ، وهذه تحسب الواقع الذي يوائمها خيرا وأشهى من كل مطمع ومن كل همه.
تلك تعطيك خير ما أعطيت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب و السرف.

كلتاهما ذات ثقافة وألمعية . لكن ثقافة هند إلى المعرفة ، وثقافة سارة إلى الفطرة.

ولو نسينا العرف والاصطلاح لحار الإنسان أيهما أقوم فى السجايا والأخلاق.

و الذي لا ريب فيه ولا حيرة فيه أن سارة أرجح وأصلح قبل أن ينزل التكليف على

أبناء أدم وحوا ء ، وأن هند أرجح وأصلح حينما نزل تكلبف ... أى تكلبف!

وما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت فى بديهة همام حتى احتجبت كل صورة إلا هاتين الصورتين المتقابلتين : إحداهما قائمة فى محراب ، والأخرى باثقة كالزمرة من زبد العباب .! وتعاقبت الأيام فأصبحت أحداهما صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الأخرى كما كانت تمثالا من لحم ودم.

وكانت سارة لا تعلم من شأن هند إلا أن هماما يعرفها ويكبرها ويزورها حينا بعد حين . فكانت تتبرم بهذه الزيارات ، ثم أن تغويه وتشغله في اليوم الذي يختاره لزيارة هند ... فيؤجل الموعد لأنه لم يكن فى الحقيقة بموعد،، ولأن البعد يمنع الاتصال بسارة وما عنده من سرور، ولكنه لا يمنع الاتصال بهند فى ذلك اليوم وفى كل يوم.

وراح همام ينسرق من نفسه وهو يدرى تارة ولا يدرى تارة أخرى حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغل أو أصبحت على الأصح ممزوجة بكل شاغل فبعد أن كانت في بداية التعارف بينهما واحدة من ألوف

وملاين يشملهن عنوان النساء مفضلة إن حضرت ، وتغيب فيغني عنها من حضر – عادت وهي الواحدة وحدها لا يغني عنها سواها وعاد همام ينظر إلى النساء في الطرقات ويوشك أن يسأل جدا وصدقا : ما بال هؤلاء ؟ ولماذا خلقن ؟ ومن الذي ينظر إليهـــــــن ؟!

لماذا شك فيهـــــــــا

اثنان لا يشكان فى المرأة التى يحبانها، وباب الشك فيها مغلق عندهما:

شاب فى مقتبل أيامه ، مخدوع فى أحلامه ، مؤمن بقداسة الحبيبة على منوال عصور الفروسية . يرتفع بها إلى سماء الطهر، ويكبرها أن تخون ويكبر نفسه فى الحقيقة أن يخان ! ويسمو منها أنها تمحضه الحب وتخلص له الولاء فلا يدور بخلده أنه يسمع كلاما يحتمل الصدق والكذب ، فيه الغلو والتزويق ويتعاهدان على دوام الصفاء بقية العمر كله فلا يخيل إليه أنهما يتعاهدان على مستحيل لأنه يتمنى، ولا يفرق بين ما سيكون وبين ما يتمنى أن يكون.

والآخر رجل مطموس البصيرة مملوء الخياشيم بالغرور والدعوى يؤتى إليه أنه حسب المرأة من أمنية ومطمع فلا منصرف لها عنه ، ولا معدى لها إلى غيره . و إلا فماذا عساها أن تبغى عند غير ؟ إنه رضى النساء من جمال واعتدال وقوة ومال.

فإذا قنعت به فما هى بمظلومة ، وان لم تقنع به إنها إذن لظالمة.

حسن ! ولكن ألا يحدث فى الدنيا أن تكون المرأة ظالمة.

كلا ! . لأن ذلك لا يسره ! ! وكفى أن لا يسره شئ من الأشياء حتى لا يكون ولا يجوز أن يكون!

ولم يكن همام بهذا ولا بذاك . لم يكن شابا في مقتبل أيامه ، لأنه جاوز الثلاثين وأوشك أن يصعد إلى الأربعين . ولم يكن مخدوعا بهذا الضرب من الغرور، لأنه موكول إلى ضروب أخرى من غرور النفوس ، مطبوع على أن لا يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى إنسان من النساء أو من الرجال .

وكان قد خبر من أحوال المرأة والرجل ما أقنعه أن الخيانة بينهما ليست من الصعوبة والامتناع بحيث يتوهمان . فما من رجل كبر أو صغر إلا والمرأة واجدة بديلا منه يغنيها عنه فى جميع نواحيه أو بعض نواحيه ، إن كان محبوبغ ففى الرجال من هو أحب ، وان كان مهيبا ففى الرجال من هو أهيب ، وان كان جميلا أو سريا أو قويا ففى الرجال من هو أجمل وأسرى وأقوى. ولقد تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، فليس من الضرورى أن تفاضل المرأة بين الحسن والأحسن والصالح والأصلح ، وليس من الضروري – إن هى فاضلت – أن تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ فقد تكون مخدوعة مسوقة ثم تستتيم إلى الخديعة ، وقد تؤثر الرجل على الرجل شهوة طريق ، كما يذهب الإنسان إلى غدائه فيلقاه مطعم يفعم أنفه ببعض روائح فيميل إليه ، وقد يعافه فى غير تلك الساعة.

وكان همام يعتقد أن الغش عند المرأة كالعظمة عند فصائل الكلاب ، يعضعضها الكلب المدلل ويدخرها حيث يعود إليها وان شبع جوفه من اللبن واللحم والأغذية المشتهاة . لأن ألوفا من السنين قد ربت أسنانه وفكيه على قضم العظام وعرقها فهو يطلبها ليجهد أسنانه وفكيه فى القضم والعرق ولو لم تكن به حاجة إلى أكلها.

وألوف من السنين قد غبرت على المرأة وهى تخاف وتحتال وتراوغ وترائى وتلعب بمواطن الضعف فى الرجل حتى أصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت فى طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذا به وشحذا للإنسان القديمة التى نبتت عليه . ويسرهن أن يصنعن الشيء ويخفيهن ولو لم تكن بهن حاجة إلى صنعه ولا إخفائه . لأن المرأة من هؤلاء تشتهي العظمة بجوع عشرين ألف سنة ، وتشتهى اللحم واللبن بجوع ساعات.

ولقد عرف همام سارة فلماذا لا يعرفها غيره . ولم يصعب عليه أن ينال عطفها فلماذا يصعب على غيره أن يناله.

إنه لم يكن يستبعد الغش والخيانه ، وليس بين الشيء الذى لا يستبعد و الشيء الذى يتوقع إلا خطوة وعلامة محسوسة.

على أن الإنسان قد يتوقع الغش لفرط إشفاقه من الفقد والخسارة لا لفرط اتهامه وسوء ظنه.

فالخزانة التى تتركها فارغة هى بعينها الخزانة التى تملؤها بالذهب والفضة والجواهر الثمينة ، لكنك تخشى على متانتها و هى حافلة عامرة ولا تخشى على متانتها وهى فارغة منسية.

وربما خرج الرجل الواحد من المنزل تنتظره فيه أم حنون وزوجة فانية ، فإذا تأخر من موعد الإياب فأول ما يخطر على بال الأم أن ابنها قد أصابه مكروه ، وأول ما يخطر على بال الزوجة أن زوجها يعبث ويعربد ، و لا يمكن أن يكون الرجل الواحد رجلين فى الرشد والحصافة والقدرة على دفع الأخطار وإنما اختلف التوقع باختلاف الشعور والخشيه .. فتتوقع الأم المكروه لأنها تخشى المكروه و لا تبالي سواه وتتوقع الزوجة الزوجة العربدة لأنها تخشى العربدة ولا تبالى سواها، ولا يسوؤها أن يصاب زوجها البغيض كما يسوؤها أن يصيبها فى غيرتها وكرامتها الزوجية.

لهذا أصبح همام يحذر الخيانة حين أصبحت هذه الخيانة شيئا يهمه ويشغل باله ، ولم يتأهب لنفيها كما تأهب لقبولها، ولم يكبر خواطره عن التمادى فى الظلم لأنه علم أن ضمان العدل موجود لا يغفل ! ! وضمان العدل أن سارة عزيزة عليه ، فما هو بمستعد للتفريط فيها تجنيا عليها ومطاوعة لوهم عارض أو شبهة طفيفة ، وما هو بقادر على التفريط إلا وقد أصبح وأمسى و ليس له من التفريط محيد.

*****

خذوا أسرارهم من صغارهم .وسر سارة إنما طرق مسامع همام أول ماطرقها من لسان طفلها الصغير.

كانا يتنزهان يوما فى أرباض القاهرة ومعها طفلها الصغير، فلعب الطفل ومرح وعدا وطفر ماشاء له مرح الطفولة ومرح المكان ... ثم اتجه – طفرة أيضا – نحو أمه وهو لا يدرى ماذا يصنع ، فاتخذ منها موقف العاشق المدله وجعل يفوه بألفاظ من عبارات المناجاة والفزل والتحبب والتدليل لا تسمع إلا بين عاشقين فى خلوة غرام ، وانطلق يرصها رصا كأنما يتلقاها من ملقن أو يتلوها من كتاب ، فصحا همام من حلمه الذى كان سادرا فيه على مهل و تكاسل كأنه لم يتبين بعد معنى مايسمع.

وأسرعت هى فانتهرت الطفل انتهارا شديدا وعنفت عليه وهى تبالغ فى نهيه أن يسترسل فى تمثيل دوره ، وأرادت أن توقع فى روع همام بغير اكتراث ظاهر أنها تزجر الطفل لبذاءة الكلام الذى يسرده لا لأنها تكتم سرا يوشك أن يفضحه بثرثرته وهذره.

فقالت : تلك مصيبة العشرة السيئة والقدوة المرذولة .. ما أدرى والله ماذا أصنع بهذا الطفل فى سنه الصغيرة ، فلا هو يصلح للمدرسة ولا هو يطيق الحبس والعزلة من أنداده وأترابه ، ولا هو يسلم من معاشرة هؤلاء الأنداد والأتراب!

قال همام : ولكنك تعرفين أنداده وأترابه ، فمن منهم تحسبينه خليقا أن يعيد على مسمعه تلك العبارات ؟

قالت : ومن أين لي أن أعلم ؟ فقد يسمعونه من خادمة أو خادم فى أكنان الحدائق وزوايا الطريق.

قال : أو هذا كلام خدم ! إن الخدم لا يصطنعون التدليل والغزل على هذا المنوال!

فسكتت وسكت ، وما فى ذهنه ذرة من الشك فى أن بعضا من ذلك الكلام الذي لفظ به الطفل قد صدر من أمه ... لأنه كلامها، فكيف تسرب إليه ؟ ومن أين ؟

إن هماما ليذكر جد الذكر أنهما لا يتخاطبان فى محضر الطففل إلا كما يتخاطب الرجل والمرأة فى المجلس المشهود و ليس لسارة زوج يعيش معها، وليس من عادات الأزواج مع هذأ أن يتغازلوا على هذا المنوال بمسمع الأطفال الصغار، فمن أين تسربت إليه المناجاة بطرفيها ؟ من أين ؟ نعم من أين!

واقترنت تلك الظاهرة فى حينها بظواهر مريبة مثلها ... فــ- ماريانا– التى كانت لا تؤتمن على سر المعرفة بينهما ما بالها اليوم قد أصبحت مأمونة الجانب مغشية الدار حتى لا حذر من التواعد لديها على غير ضرورة ؟ وتلك الزينة المعهودة بعطرها وشياتها ما بال سارة تحتفل بها فى غير أيامها ! ونوازع الغرائز التى لا سلطان عليها للمرأة ما بالها تتبدل ؟ ووسائل الحيطة الخفية ما بالها تتعدد ؟ وذلك التلطف المريب كتلطف الآثم الذي يسمح حوبته بفرط المجاملة ويكفر عن خيانته الباطنة بفرط المصالحة الظاهرة ماذا وراءها وماذا في أطوائها ؟

علامات وقرائن لا يأخذ بها القاضي فى قضائه بالإدانة ولكنها كافية للتشكيك في خلوص النيه.

والقضاء بعد مطالب بإقناع غيره محظور عليه أن يكتفى بإقناع نفسه ... أما الرجل الذي ينشد الطمأنينة مع المرأة فلمن يحكم إن لم يحكم لنفسه . وبأي اقتناع يدين إن لم يدن باقتناعه ؟

وراء الاكمة ما وراءها ... تلك حقيقة لا ريب فيها، ولكن ماذا وراءها) قد يجهل الرجل ذلك على التحقيق والتفصيل ، ولكن ألا يكفى أن تكون هناك أكمة وأن يكون هناك شيء مجهول وراءها ليقوم الحائل بين القلبين ، ويكدر الجو بين الصفيين(

وجائز عند همام أن تنصرف عنه سارة إلى غيره ، ولكن ليس بالجائز عنده أن تستغفله لأنها تتوهم فى دهائها القدرة على الجمع بينه وبين غيره!

جائز أن يكون هو وهى ألعوبة واحدة فى يد الطبيعة التى تسوقه وتسوقها ولكن ليس بالجائز أن يكون هو ألعوبة فى يدها وأن تكون هى اللاعبة بلبه وولائه.

وقد نصب لقلبها الميزان الذى نصبه لقلبه فى السر والعلانية وأخذ شبهات كثيرة ولم تأخذ عليه شبهة واحدة ، واتهمها فلم يشاهد عليها عذاب المرأة التي تفجع فى حب تقابله بحب مثله بل كان كل ما شاهده عليها محال المتهم الذى يجهد فى تفنيد تهمة ، ويود لو فاز بالغلبة ووقع على الأدلة الدامغة. .

هل ظلمهـــــــا ؟!

يجوز! . . .

وكلما أعاد همام هذا السؤال وأعاد معه هذا الجواب لمس به أغوار فتنتها و اعتقد أنه يخدع عقله باختياره ، ويساعدها على تضليل حسه ورأيه ، وأنه لم يظلمها و لا افترى عليها ! ولولا ذلك لقد كانت شبهة أهون من هاتيك الشبهات كافية كل الكفاية للبت في أمرها وطي السؤال والجواب عنها.

وخير له أن يفارقها بغير جريرة قادرا على ألام فراقها صائما عن مسراتها، من أن يعاشرها عاجزا عن فراقها، باذلا كل ما عنده من اهتمام ، مستحقا كل ماعندها من احتقار واستغفال.

لقد سلبته الطمأنينة وكفى!

جلاء الحقيقة

انتهت مهمتى!

أى نعم . انتهت المهمة ، وبطلت الرقابة ، واستراح الرقيب ! وكان أمين موفقا فى هذه المرة كل التوفيق ، لأنه زود هماما بالحجة القاطعة التى يواجه بها غوايته و يقمع بها نكسات ضعفه ، كلما ساوره الندم وعزت

عليه السلوى.

ولم تأت هذه الحجة إلا بعد استئناف الرقابة بزمن غير قصير، وجهد غير قليل . ولكن علام الرقابة بعد القطيعة ؟ ألم ينحسم كل ما بين ذلك الرجل وتلك المرأة من علاقة ؟ ألم يقصر همام عن ذكر سارة ووفاء سارة وخداع سارة . ألم يعول كل التعويل على أن يظن أسوأ الظنون . ويفرض أشنع الفروض ، ويوطن عزيمته علي خيانتها ولا يغالط وهمه فى شأنها ولو تفتحت له أبواب المغالطة.

بلى كان ذلك!

غير أنها كانت أحلاما، ولم تصح الأحلام إلا بضعة أيام . وقد صحت الأحلام في الأيام الأولى بعد القطيعة حتى ظن همام أنه قد سلا واستقر على السلوى ، فما يبالى بعدها من خان ووفى ومن ضل وغوى.

على أنها كانت راحة موقوتة أشبه براحة اللديغ الساهد حين ينقلب من جنب إلى جنب ، وما به من نوم ولا غفوة على هذا الجنب ولا على ذاك.

ثم خرج همام من هذه الراحة الموقوتة إلى شيء آخر : إلى شيء غير الراحة وغير السلوى إلى الشعور القاصم بالفراغ ، والحرج والضيق ونفاذ الحيلة كلها في الفراغ.

كل حاسة من حواسه فقدت شيئا، وكل لحظة من لحظاته فقدت شيئا، وكل مكان يغشاه فقد شيئا، وكل سرور من مسراته أو كل ألمم من ألامه فقد معناه وغايته ولبابه ، وماذا عوضها جميعا . ! . . عوضها نقيضها الذى يلغيها ولا ينوب عنها، فإما غم محبوس كظيم ، وإما حيرة عمياء ليس لها اتجاه وإما سكون موحش بعد حركة وجيعة ، وكل أولئك فى فراغ فارغ لا مبدأ له ولا نهاية ولا مهرب فيه ولا قرار.

خوى الجحيم الحي وهبط في مكانه الزمهرير المبت وبئس هذا الموت وبئست الحياة.

زمهرير لا يعيش فيه الأحياء ، ولكنما هو زمهرير خاص للتعذيب لا لمأرب غير التعذيب فلهذا يعيش فيه من يعيش من الأحياء!

وجرب السلوى وما خامره الشك أنها علاج مطلوب وانها علاج مستطاع . ولم لا يكون مستطاعا أن يسلو الرجل امرأة بامرأة مثلها أو أفضل منها ؟ ألا يساو تالجائع عن صفحة الطعام بصفحة مثلها أو أشهى منها . فلماذا يعييه أن يسلو عن هذه المرأة بغيرها من بنات حواء ؟؟

ونسي همام أنه ليس بجائع وإنما هو عليل مسلوب الاشتهاء .. فمن حاجته قبل أن ينظر في انتفاء طعامه أن يعيد ذوقه إلى اعتداله وأن يجد اللذة فيما يشتهيه ويستوي عنده قبل ذلك أطيب الطعام وأخبث الطعام كما يستوي الأكل والصيام .

بل نسى أن الرجل حين يحب المرأة فإنما يريدها هى ولا يريد ما هو أجمل منها وإنما يحسها ويحس بها لأنها هى هى لا لأنها امرأة لا فارق بينها وبين سائر النساء.

و كالنظارة التي تجلو العين لأنها نظارتها تكون المعشوقة للعاشق الذي عاشرها وألف محاسنها وعيوبها، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها شخص مستقل " مخصوص " لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة . فلا النظارة التي هي أبعد أمدا وأنفس زجاجا تغني العين التى تنظر بما دونها. ولا المرأة التى هى أجمل طلعة وأكرم سليقة تغنى القلب الذى تعود أن يخفق لها أو يخفق معها.

لا بل تكون التسلية هنا أحجى بأن تنكأ الجراح وتضاعف الحسرة وتضرم لوعة الفقد والغيبة ، فالمرأة المجهولة تغنى من المرأة المجهولة لأنك لا تعرف لها صفة تتكرها عند أختها ... أما المرأة التى تشخصت فى حسك كل صفة من صفاتها فكيف ترى

امرأة غيرها دون أن تشعر فى كل لمحة وكل لمسة أن لها وجهها غير وجه فلانة ، وعينا غير عينها، وصوتا غير صوتها، وقواما غير قوامها، و أعطافا غير أعطافها، وروحا غير روحها وكلاما غير كلامها ٠

وكيف تشعر بذلك دون أن تنقلب التسلية غصة ودون أن ينقلب العوض المنشود ذريعة من ذرائع الفقد الدائم والحرمان المتجدد ؟

كلا ! لا تسلية عن النظارة المضبوطة بنظارة أنفس منها وأقدر على التقريب والتوضيح.

ولا تسلية من الابن الضائع بابن من صلب غيرك ولا من صلبك ، ولو كان أبر الأبناء الذين ولد الآباء ولا تسلية من المرأة المعشوقة بامرأة تفوقها ملاحة وتبرعها ذكاء و تبذها عندك وعند غيرك فى بعض الخصال ولا فى جميع الخصال.

وفى الحب كثير من بقايا الطفولة وتراث الغريزة ، فلابد للقلب من فترة طويلة أو قصيرة يعاف فيها كل هوى غير هواه ، كما يعاف الطفل كل ثدى غير ثديه، أو يعاف الطير كل أليف غير أليفه ، أو يعاف الحيوان كل سكن غير سكنه بين أمه وأبيه.

في هذه الفترة عاد أمين إلى القاهرة فى إجازة طويلة . ورأى من الأمسية الأولى التى قضاها مع همام أين تقف الأمور كما يقول بغير حاجة إلى إفاضة شرح وإطالة سؤال .

الحقيقة غير معروفة والسلوى غير ميسورة ، والوقت ثقيل كسير لا يخف ولا يتحرك ! وكل وسيلة يقطعانه بها لا تلبث أن تمسه قليلا حتى تتثلم وتكل وترتد عن صفحته الكثيفة وجلده الصفيق ، فالقراءة لا تنفع ، واللعب لا يمنع الذهن أن يشرد ويتيه ، والسماع لا يطاق ، والرياضة مطلوبة مستحبة على أن تكون فى غير الأماكن التى كان يطرقها همام وسارة وهل من مكان لم يطرقاه ؟

وكثر التحدث من الجنون والمجانين وبوادر الهوى التى تصيب العقلاء من حيث لا يعلمون ولا يعلم أصحابهم المقربون . فكان همام يقول ما أحسب إلا أننى سأكون بين الناس فى بعض الأيام فأخلط بالحديث عن سارة وظنون سارة ! ثم يسأل أمينا : ترى كيف تقع هذه المفاجأة فى فلان وفلان ؟ وكيف يكون هذا الخلط لو كان ؟

هذا أو يعمد أمين إلى فنون من الألاعيب الصبيانية ينفي بها الملل ويموه بها الكآبة فيدق التليفون ويجيبه الرجل المقصود أو غير المقصور فيجري بينهما حديث كهذا الحديث :
هل أنت فلان ؟

نعم .. أنا هو ..

أواثق أنت مما تقول .

عجبا ما معنى هذا السؤال .

عفوا سيدي . إنما أردت أن أتحقق من صواب عاملات التلفون فهل عندك الرقم المطلوب بعينه ؟
نعم يا سيدي . هل من خدمة

بل سؤال صغير إن سمحت

تفضل

أرجو أن تجيبني ولا تستغرب . هل قرأت صهاريج اللؤلؤ .؟

صهاريج اللؤلؤ .. ما هذا ؟

أي نعم . صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكري ظننتك قد سمعت به .. أما سمعت به . أما قرأته ؟
بلى قرأته فما هذه الأسئلة .

ثم يلقي السماعة ويمضي في تخيل فلان وفلان وهو يغضب ويصخب وينعي على مصر والمصريين هذه الفصول التي لا تحدث في باريس ولا لندن ولا برلين !

صبيانيات من هذا القبيل تشغل الوقت ويندر جدا أن تغضب هماما على ضحكة أو ابتسامة إلى أن كانت ليلة من هذه الليالي المتشابهات طال فيها السأم ونزر الكلام ورانت فيها الكآبة فقال امين : ما الرأي في استئناف الرقابة ؟

ولعله قالها لفتح باب من ابواب السمر أو لعله قالها لدفع السأم أو لعله قالها لإتمام عمل بدأ فيه وكبر عليه أن يتركه بغير نتيجة إلا أن هماما رحب باقتراحه وحاول أن يجد في معارضته كي يمهد لأمين طريق التراجع إن كان قد تعجل أو بدر منه ذلك الاقتراح تزجية للوقت وجذبا لأطراف الحديث فلم تسعفه أسباب المعارضة ولم يسعه إلا الموافقة وهو لا يدري من فائدة لاستئناف الرقابة إلا أنه عمل لن يزيده تعبا على تعبه وقد يريح ...

وبدات الرقابة بكرة وقد تدرب عليها أمين من جهة وتهيأت دواعيها من جهة أخرى وعاونتها المصادفات من جهة ثالثة فنجحت بعد طويلة نجاحا كان جديرا بعناء المحاولة لأنه أراح همام وأراح أمين وصوب الضربة إلى راس الأوهام واللواعج والمعاذير فقضى عليها .

عاد أمين من رحلته ذات يوم متهللا مسرعا يتكلف الحزن والأسى تكلف الناعم . الذى ينقل أخبار الوفاة إلى وارث مدين يتنازعه الحزن والسرور.

قال همام خير
قال أمين خير كل الخير

ولولا احتراسه أن يصدم صديقه بالنبأ السعيد المشئوم لصار صيحة "أرخميد" ...: وجدتها. وجدتها ! !..
وحق له أن يصيح، فقد كان يمتحن زيفا دقيقا لا يقل من الزيف الذى امتحنه الرياضى العظيم !

وفوحوى القصة أنه تبع سارة من منزلها حتى نزلت في ميدان باب الحديد فمشت أمام ومشت وراء ودار بعينها ودارت بعينيها فيما حولها تزور الطريق وتتوقى الأنظار،
فأطل رجل من سيارة كانت واقفة بالانتظار وأشار إليها. فانفلتت إلى السيارة فى سرعة البرق ، وتبين أمين الرجل بثيابه وسيماه .

قال همام : وهل تبعت السيارة ؟

قال أمين : لا. فقد غابت عن النظر قبل أن أدركها بسيارة أخرى.

قال همام مستضحكا جذلا ليصرف عنه أسفه المصطنع ويسري عنه ندامة

هذا الفشل الصغير ويسره بنتيجة تعبه :

أحسنت ياسيد أمين أحسنت ! قد وصلنا. وان لم نصل إلى باب الدار.

فاستمر على بركة كيوبيد.

******

وانقضت ايام في مثل حالة المفجوعين الذي اطمأنوا إلى موت فقيدهم في ديار الغربة ولم يبق إلا أن تصل الجثة إلى مقرها الاخير بعد سنوات من وقوع المصاب : لا حدة ولا حداد ولا حرارة في الانتظار بل مسايرة للأيام والحوادث إلى أن تنتهي حيث يروقها الانتهاء .

ففي بعض هذه الأيام كان همام يركب الترام قبل الموعد بنحو الساعة إلى حيث يلقى أمينا – عشاء كل يوم – بعد رحلته اليومية المعهودة . فإذا بأمين يقفز إلى جانبه والترام سائر على أقصى سرعة .

فنسى همام ما كانا فيه ولم يذكر إلا نوادر أمين فى الخوف من ركوب الترام و النزول منه وهو سائر. فليس أظرف من سهراته المحفوظة إلا نوادره فى خوف الترام و المركبات والزوارق وكل ما يسير ويخشى من سيره الهلاك . فقد ولع به أصحابه من جراء ذلك وتعقبوه بالمناوأة والمحاورة عسى أن يقلع عن خوفه فما أقلع ... وأخر نوادره فى هذا الباب كان فى خلال ذلك الأسبوع ، وكان هو وأصحابه يغادرون حديقة الحيوان وهم يوهمونه أنهم سيركبون الترام الذي يهم بالمسير ويتباطؤون لقلة اكتراثهم أن يركبوه وهو سائر. فأسرع قبلهم ليدركه قبل أن يتحرك . فتركوه ووقفوا ينظرون إليه وينظر إليهم وهو لا يجسر على النزول !

وأبى أمين أن يقنع بهذا فى أضاحيك يوم ، فزاد عليه أضحوكة أخرى من سهواته وبدواته : مضى مع الترام إلى أخر الخط ثم قضى فى البحث عن أصحابه بقية الظهيرة ، وقد كان فى وسعه أن ينزل فى المحطة التالية ويركب معهم القطار الذى ركبوه .. ولكن الرجل سخى بسهواته ومخاوفه لا ينفق منها بحساب !

ذكر همام هذا حين رأى المعجزة التى ما رأهأ قط ولا توقعها ... وعلم أن أمرا خطيرا لابد قد جرى فى الدنيا وقفز بأمين تلك القفزة النادرة ، بل تلك القفزة المقطوعة النظير ! ولا شك أن الضحك الذى سرى تلك الساعة إلى خاطر همام قد كان بطانة ناعمة وغيرة نسجتها المقادير ليتلقى عليها الخبر المشئوم الميمون ، المترقب بنافذ الصبر ونفاذ الحيلة منذ شهور، وقد كان له شأن أى شأن في تهوين المسألة كلها وتلطيفها وافراغها فى مرحلتها الأخيرة فى قالب السخرية والفكاهة .

فلما جلس أمين إلى جانب همام لم ينتظر سؤالا ولم يأبه للضحك الذى كان يلوح على عينى همام وقال فى رصانة وتؤدة : انتهت مهمتى.

قال همام : لا ريب فى ذلك . فإن قفزتك وحدها لدليل أقوى من كل دليل . فأوجز يا صاح. أوجز و لا ضرورة للتفصيل .

قال أمين : الآن هى فى مخدع مريب فى بيت قريب ، تبعتها إليه وعرفته وعرفت اسم صاحبه الذى يستأجره ، وعرفت أنها تغشاه من حين إلى حين .

فلم يزد همام على أن أغمض عينيه هنيهة . أغمضهما كأنه يتحاشى النظر إلى سبة شائنة أو كأنه يتهيأ للراحة بعد سهاد طويل فى ارتقاب خبر مكتوم مضنون به عليه . ثم أسرع فصافح أمينا وهز يده هزة الشكر والرضى والابتهاج، وقال له : صدقت صدقت ، لقد انتهت المهمة ، فهلم نحتفل بتشيعها.

و نشط كلاهما نشاطا لم يدريا ماذا يصنعان به وكيف يجريانه فى مجراه . فانطلقا إلى أطراف المدينة يمشيان بل يغذان السير على غير هدى و طفقا يطوفان ويعودان إلى حيث كانا حتى صادفا اثنين من أصحابهما الأدباء يلتمسان السهر ولا يتفقان على مكان ، فانساقوا جميعا إلى ناد متطرف على هامش الصحراء، وكانت الليلة مقمرة والجو رائقا والسيارات ذاهبة آيبة فى خفة وطرب واشتياق .

ويتم التوفيق فيكون أحد الأديبين صاحبنا الذى كان أمين يختلق له الأسئلة فى التليفون ، ويتم التوفيق مرة أخرى فيجرى الحديث فى الأدب وفى النثر البليغ وفى صهاريج اللؤلؤ أي نعم فى صهاريج اللؤلؤ بعينها، ويقول صاحبنا : لقد قرأته مرتين ! و يوشك أمين وهمام أن يسألا : أكان ذلك بعد نصيحة التليفون . ولكنهما يكتفيان بالإيماء ويحبسان الضحك ، ويضيفانه إلى حساب السرور الخفى الذى يحتويانه منفردين .

فيم كان ذلك السرور ؟

لعله كان سرورا بتقليم مخالب العذاب التى كانت تنوشه من كل جانب وهو ملقى بينها عاجز عن النجاة منها. لعله كان سرور الرضى بتحقيق الظنون وانقطاع الشكوك .

ولعله كان سرور القدرة على التفريط فى سارة بغير لاعجة من حسرة ولا خالجة من ندم .. أو لم تعد امرأة من النساء بعد أن كانت المرأة المخصوصة بعاشق واحد دون سائر الرجال . ألم تنقشع عنها سرابيل الحب الأثير التى كانت تغليها وتعلو بها فى ضمير همام ألم يسقط عنها –سحر– الانفراد الذى جعلها محبوبة لا تغنى عنها واحدة ممن يحملن عنوان النساء.

بلى ! كان ذلك أكبر ما سر هماما فى تلك الليلة بما سمع من بشارة أمين ، وظل على سروره هذا أياما يترشفه ويكرع منه ولا يروى منه بالجرعة والجرعتين ، وصفا له شعور الراحة والسكينة برهة لا ينساها بقية أيامه ، فلم يرنقها عليه كدر ولا ألم من نكسات الداء القديم ، ولم يكد يشعر أن للداء القديم رسيسا باقيا إلا حين انقضت إجازة أمين وودعه صباح يوم للذهاب إلى عمله ، فقد كانا معا كالسائحين فى طريق واحد معروف المعالم والأنحاء لهما على السواء فلما افترقا أحس همام كأنه قد ضل الطريق ، وألح عليه هذا الإحساس المبهم بضعة أيام ، ثم تراجع رويدا رويدا إلى رضوان صحيح، أو رضوان يقنع نفسه بأنه صحيح .

إلا أن كيوبيد شيطان مريد له لؤم الشياطين ونزعاتهم ومكائدهم وكرامتهم أن يتركوا الناس هادئين وادعين ، فمن حين إلى حين كأن هماما يسمعه يهجس له ويسوس فى صدره ليسلبه ارتياحه إلى فراق سارة وقدرته على تناسيها، فلا يفتأ يعاوده أبدا بهذا السؤال :

أليس من الجائز أنها وفت لك فى أيام عشرتها واستحقت وفاءك لها وصيانتك إياها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق !

تمت